16 em Année No. 799

Lundi — 25 — 10 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ في مصر والسودان

١٥٠ في سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد «٧٩٩» القاهرة في يوم الاثنين ٢٢ ذو الحجة سنة ١٣٦٧ — ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٨» السنة السادسة عشرة

أول ما عرفت شـــوقي

(بمناسبة ذكراه السادسة عشرة)

عرفت شوقي عن عِيان سنة ١٩٢٧ في المهرجان الذي أقيم لتكريمه في القاهرة. عرفني به صديقي الأستاذ محمد كرد علي، وكان قد وفد فيمن وفدوا من أقطاب الأدب وأعيان العرب ليشاركوا مصر في تكريم شاعر العربية المعظم؛ فذهبت إليه في فندق الكنتننتال أزوره، فوجدته بالشرفة جالساً في قلادة من أولي الفضل يتوسطها شوقي. فلما رآني مقبلا هش لي ورفّ عليَّ، وقال لشوقي وهو يبتسم ويتهلل: هـذا هو الرجل الذي أنصفك! فلما استبانني الشاعر النابه عجب الأستاذ كرد علي ألا يكون بيننا تعارف ونحن نعيش في بلد واحد ونسير في طريق واحد. وسماني له، فتلقاني ببشره وشكره وأنسه. ثم توثقت بيني وبينه أسباب المودة سنتين كاملتين رحلت بعدهما إلى العراق. وفي أثناء مقامي ببغداد اصطفاه الله لجواره، فلم أره بعد ذلك إلا رؤيا، ولم أتمثله إلا ذكرى!

كان الأستاذ كرد علي يشير بإنصافي لشوقي إلى مقال نشرته يومئذ في العدد الخاص بتكريمه من (السياسة الأسبوعية) عنوانه (ما لشوقي وما عليه)؛ وكان أكثر ما كتب في هذا العدد عن شوقي أقرب إلى التنكير وأدنى إلى الجرح، فداخل شوقي ظنون من إخراج هذا العدد، وحك في صدره أشياء من جهة هيكل؛ وأرهج بعض الناس بين الصديقين بالفساد حتى كاد أن تقع بينهما جفوة.

قال لي شوقي وقد أخذ بذراعي والقوم منصرفون: إني أشكرك على نقدك وتقريظك على حد سواء، فإن الحق فيما أخذت لي ظاهر، والعدل فيما أخذت علي صريح. وإني أسلم لك ما عددت من هفواتي وأرده إلى اختلاف الأثر بين عصرين وثقافتين وذوقين. وليس من السهل أن يتجرد الشاعر أو الكاتب جملة أو فجأة من عوامل الوراثة والدراسة والبيئة. ولكن ما رأيك فيما كتب فلان وفلان؟ وهل كان من مقتضيات الحال أن تنشر مجلة صديقي هيكل آراء خصومي في عدد تكريمي؟ فقلت له: إن رئيس تحرير السياسة كاتب يعرف قيمة النقد، ويرعى حرمة الرأي؛ وقد طلب إلى طائفة من أعلام الأدب أن يدلوا بآرائهم في الشاعر من غير تحديد لجهة، ولا تعيين لقصد، ليكون العدد الخاص على ما أعتقد دراسة فنية شاملة لنواحي الشاعر تتعارض فيها الآراء، وتتقارع فيها الحجج، فتتألف من هنا ومن هناك صورة تامة لفن الأمير تكون في وسط هذا المهرجان تمثالا فيه الجمال والجلال، ولكن فيه كذلك الصفات الطبيعية الأخرى التي يريدها الخالق الكامل للمخلوق الناقص. فقال شوقي بصوته الخفيض وابتسامته الوديعة: يظهر أنك لا تقرأ ما بين السطور ولا تعرف ما وراء الستور. فقلت له: ربما!

ووقفت بنا سيارته على (كرمة ابن هانئ)، وكانت ليلتئذ تتلألأ بالنور والسرور، وتزدان بالزهور والحضور. فأصاب

القوم ما شاءوا من مرئ الطعام وهنئ الشراب، ثم تجمعوا زمراً فوق أرائك البهو وكراسي الردهة، يستمعون إلى اللحن الناشئ والمغنى الحدث محمد عبد الوهاب وهو يغني بصوته الرخيم الخافت « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا ». وكان شوقي آنس الله وحشته يؤثرني بالرعاية ويخصني بالحديث، شأنك مع الصديق الجديد والزائر المحتشم.

وفي أصيل اليوم التالي بعث إليّ بسيارته الفخمة تحملني إلى داره؛ وكانت الدار حين دخلتها ساكنة كالصومعة، رهيبة كالمعبد؛ فمن رآها ليلة الأمس ثم رآها عصرية اليوم تذكر حال السكران الطافح ترنحه الخمر فيعربد، ثم يهوّده الخمار فينام.

كان شوقي جالساً في ركن من الشرفة ومعه على المائدة الصغيرة حافظ وعبد المطلب وحفني محمود، فلما أخذت موضعي من المجلس قال شوقي إنما دعانا على هذا الوضع من اختلاف السن والذوق والثقافة لنقرأ نونيته التي نظمها للمهرجان. وأخذ حافظ يقرأ القصيدة فنقف عند كل بيت، ننظر في سياقه وموسيقاه، ثم نروّي في معانيه وألفاظه، فربما استبدلنا لفظاً بلفظ، وآثرنا عبارة على عبارة، وذوق الشاعر العبقري من وراء أذواقنا جميعاً ينقد ويوازن ويفاضل ويختار، حتى استوى القصيد على فنه الرفيع منضد اللفظ نقي المستشف. وأردنا بعد ذلك أن نسمع حافظاً، برد الله بالرحمة ثراه، فاعتل بعلة لا أذكرها؛ ولكنه رأى من خلال المناقشة تجانساً بين ذوقي وذوقه فسألني أن أصحبه في العودة. وفي قهوة بميدان الأوبرا كانت موضع ملهى (بديعة) اليوم، جلست أنا وحافظ رأساً إلى رأس، يقول في شوقي وأسمع، ويفتن في النكات وأضحك، حتى قال: سأنشدك قصيدتي لترى فيها رأيك. وأخذ شاعر النيل يقرأ لي عينيته المشهورة بصوته الفخم وإلقائه المعبر حتى فرغ منها؛ ثم نظر إلى نظر المستفهم المطمئن المعجب، فقلت له: هنيئاً لك التصفيق الحاد والاستعادة المتكررة ياحافظ! قصيدة شوقي للقراءة وقصيدتك للسماع، ومعانيه للخاصة ومعانيك للجمهور! فقال في لهجته الساخرة الفكهة: وهل يعنيني غير الجمهور؟

توالى اللقاء بيني وبين شوقي بعد ذلك اليوم، مرة في داره، ومراراً في (صولت). وكان كلما أنشأ عبقرية من عبقرياته أقرأني إياها؛ وذلك شأنه في جميع أطوار عمره: يعرض ما يقرض على الآذان المتباينة والأذهان المتفاوتة ليعلم موقعه من كل ذوق، وأثره في كل نفس. وكان أشد ما مكن الألفة بيني وبينه مشابه في الطبع من فرط الحياء، وحب العزلة، وقلة الكلام، والانقباض في الندىّ الحافل، والابتعاد عن الحفل الجامع؛ فكأن كلاًّ منا كان يرى في الآخر عزاء عن نقصه وعوضاً من حرمانه.

كان شوقي يرى كأكثر الناس أن الرجل إذا لم يعمل في الحكومة كان أشبه بالمتشرد. لذلك كان قلقاً علي من هذه الناحية، فهو يستكبرني على العمل الحر، ويعجب ألا يكون لي مكان في وزارة المعارف. ثم أخذ يسعى من وراء علمي لدى وزير المعارف علي الشمسي باشا ويمهد لي السبيل للقائه. وفي ذات ليلة من لياليه قال لي ونحن في ركن من أركان صولت: سأنتظرك غداً هنا في الساعة الحادية عشرة، فتعال ومعك مجموعة من كتبك لتزور وزير المعارف. فقلت له: وما شأني بوزير المعارف؟ فقال إنه يود أن يراك، ولعل من الخير أن تراه. فلما دخلنا على الوزير في الموعد الموقوت قدمني وكتبي إليه، فسلم الرجل تسليم البشاشة، وشكر شكران الغبطة. وجرى في حضرته حديث عن استجاز شوقي فيه ما لا يجوز إلا للشاعر من المبالغة في المدح والمجاملة في الثناء. ولما خرجنا من عنده ربت على كتفي وقال وهو مبتهج: لقد وعدني الوزير أن يضمك إلى الوزارة! فقلت له ولم أدهش لأني حزرت ذلك من قبل: ألهذا جشمت نفسك ياسيدي ونفسي؟ حدّ الله مابيني وبين الحكومة! لقد حاول هذه المحاولة منذ أربع سنين طاهر باشا نور وعبد الفتاح باشا صبري فجذبت عناني من يديهما ومضيت. وأراد صديقي طه حسين وأستاذي لطفي السيد أن يدخلاني الجامعة منذ سنتين فلذت بالفرار بعد صدور القرار. أنا يا سيدي أستاذ في الجامعة الأمريكية، مرتبي ضخم ومكاني مرفوع ورأيي مسموع وحريتي مطلقة. فهل نافعي أن أدع الطريق الذي قطعت أكثره إلى طريق أبدأه من جديد، وأن أعمد إلى رجليّ الطليقتين فأضعهما في قيد من حديد؟

ولكن شوقي الصديق الشفيق لم يرضه هذا المنطق، فظل مشفقاً علي من العمل الحر حتى رحلت عن هذا البلد، فودعني راضياً وما كنت أدري وا أسفاه أنه وداع الأبد!

(القاهرة) أحمد حسن الزيات

اليهودية = الصهيونية = الشيوعية

للأستاذ نقولا الحداد

سألني الأستاذ حكمت علي من بغداد عما إذا كان ثمت فرق بين اليهودية والصهيونية . . . أجل يا سيدي ، الصهيوني يهودي واليهودي صهيوني ولا فرق . وإنما استنبطوا كلمة صهيونية لقوم أفاقين جاءوا من الآفاق إلى فلسطين لكي ينشئوا دولة صهيونية ، أي يهودية ، أي إسرائيلية . وكلمة صهيون في الأصل كانت اسماً لجبل أو تل في الجنوب الغربي من مدينة أورشليم (القدس) ثم أطلقت على كل أورشليم عاصمة فلسطين .

وإنشاء مملكة يهودية أو إسرائيلية هو أمنية كل يهودي سواء أكان سامياً أم آرياً ... لما حكم فلسطين الولاة الرومانيون وخربوا هيكلها العظيم سنة ٧٠ ميلادية تشتت اليهود في العالم . والآن يحل محل ذلك الهيكل الذي لم يبق منه طلل ، جامع قبة الصخرة . ولم يبق لليهود في أورشليم إلا جدار يبكون أمامه هيكلهم وماضيهم .

من ذلك الزمان إلى اليوم يتوق اليهود إلى مملكة فلسطين وإلى بناء هيكلهم فيها من جديد . أينما يكن اليهود يتمنوا هذه الأمنية ويبذلوا كل غال ورخيص في سبيلها . ولا يغرنك قول اليهودي إنه ليس صهيونياً ؛ فإنما يقوله للتمويه فقط ، إذ يخشى أن يتهم بأنه يخالف قوانين البلاد العربية في تحريم إرسال مال إلى الصهيونيين في تل أبيب . وهم يرسلون الأموال من أمريكا جهاراً ومن البلاد العربية سراً لهذا الغرض . وشفيق عدس الذي شنق في بغداد مثل من أمثلة الخونة الذين يهربون الأموال والعتاد إلى يهود فلسطين . فأينما رأيت يهودياً فقل إنه صهيوني ، وإنه يتحين الفرص لكي يعمل للصهيونية .

***

بقي على العرب أن يعلموا — إذا كان الإنكليز والأمريكان لا يعلمون — أن الصهيونية أخت الشيوعية بل أمها ؛ لأن اليهود الذين قبلوا الحكم القيصري كانوا كلهم يهوداً ما عدا لنين . ولما أنشأوا دولة البلشفية جحدوا الدين وطردوا الأكليروس النصارى واليهود والمسلمين من كنائسهم وجوامعهم وصاروا كلهم يدينون بدين كارل ماركس الاشتراكي ، فلم تعد تفرق بين اليهودي وغير اليهودي ، ولم تعد تعرف من هو اليهودي ومن هو المسلم . ولكن الذي كان في القلب بقي في القلب . وبقي اليهود يتحينون تلك الفرصة لكي يملكوا روسيا ولو بصفة كونها اشتراكية . ولكن ستالين فطن لمؤامراتهم التي كانوا يدبرونها لكي يقلبوا سلطته فأباد كثيرين منهم . ومن يعرفهم فلعل جروميكو وفيشنسكي منهم .

قد يظن بعض الناس أن اليهود لا يمكن أن يكونوا اشتراكيين أو شيوعيين لأنهم رأسماليون ، والشيوعية نقيض الرأسمالية ؛ ولكن فليعلم من لم يعلم أن اليهود كالحرباء يتلونون بكل لون لكي يصلوا إلى أغراضهم . فيمكن اليهودي أن يكون رأسمالياً تارة واشتراكياً أخرى ؛ ويمكن أن يكون أرستقراطياً أو ديموقراطياً ويهودياً أو مسلماً أو نصرانياً . يمكن أن يكون أي شيء إذا كان يظفر بالسيطرة ؛ فإذا كان اليهود اشتراكيين ثم قبضوا على زمام الحكم الاشتراكي أو الشيوعي العالمي ، أفلا تصبح أموال العالم كلها في أيديهم ؟ — هذا ما يسعون إليه الآن ، وسيرى ستالين أو خلف ستالين أطال الله بقاءه أن الشيوعية صارت في قبضة الصهيونية . وحينئذ تصبح موسكو تحت سيطرة تل أبيب تتلقى أوامرها منها ؛ وحينئذ تصبح أوربا كلها وبعدها أمريكا شيوعية ، وكلها واقعة تحت سيطرة موسكو ، وبالتالي تحت سيطرة تل أبيب . وكل آت قريب .

فهل يعلم الأمريكان أنهم وهم يناهضون الشيوعية يخدمونها في تأييد دولة إسرائيل المزعومة ؟

نقولا الحداد

صديقي الأستاذ توفيق الحكيم

للأستاذ أنور المعداوي

أشكر الظروف الطيبة التي هيأت لنا أسباب اللقاء ، وتلك اللحظات الممتعة التي جمعت بيني وبينك حول مائدة الأدب والفن تحدثني وأحدثك ، وتصغى إلى وأصغى إليك ، ونغترف معاً من شتى الطعوم والألوان ...

ولقيتني لقاء الصديق للصديق ، وكأننا كنا على ميعاد . وأشهد لقد أكبرت فيك كثيراً من نواحي الشخصية الإنسانية ، تلك التي كنت أجهلها قبل أن ألقاك . ولقد قلت لنفسي بعد أول لقاء : ليتني قد عرفتك من قبل ، لتستقيم لي النظرة إلى فنك على هدى الخصائص الأصيلة في شخصيتك ... ومع ذلك قد هيأ لي هذا اللقاء أن أبلغ منتصف الطريق إلى الغاية ، وأن أكشف الغطاء عن كثير !

وكان لقاء آخر طويت فيه الطريق كله حتى بلغت منتهاه ، والفضل في ذلك منسوب إليك ؛ لأنك حدثتني عن نفسك وعن فنك حديثاً طويلا لمست فيه حرارة الصدق المنزه عن الأغراض .

لقد هاجمتك في الأيام الأخيرة مرة هنا ومرات هناك ، وعلى الرغم من هذا كله فقد شاء أدبك أن تشد على يدي ، وأن تثني على قلمي ، وأن تلقاني لقاء الصديق ... ويشهد الله أنني ما هاجمتك إلا لأنني أقدرك كل التقدير ، وأحمل لك في نفسي رصيداً مذخوراً من الذكريات الغالية . أنت في عالم القصة معدن نفيس ، ومن حقي أن أزيل بيد الناقد ما علق بالمعدن النفيس من غبار الحياة ...

هذا ما كنت أقوله لكل من يلقاني معاتباً على موقفي منك ، وكنت أزيد على ذلك قولي : لقد عودني توفيق الحكيم أن ألقاه في القمم ، فإذا ما هبط مرة عن مستواه ، فمن حقي أن أثور عليه لأرده بهذه الثورة إلى مكانه الطبيعي !

قلت لك هذا فقدرت الدافع وشكرت القصد ، وملأت نفسي إعجاباً برحابة صدرك وسماحة طبعك ، وتقبلك النقد بروح مثالية هي روح الفنان .

وخضنا أيها الصديق الكريم في حديث طويل خرج منه الأدب والفن بنصيب كبير ، وخرجت منه « أخبار اليوم » بتلك الكلمة القيمة التي كتبتها على أثر لقائنا وبوحي من نقاشنا حول طبيعة الفن ورسالة الفنان ...

أما حديثنا ، فقد التقينا فيه حول الكثير ، وافترقنا حول القليل ، والفضل في ذلك أيضاً منسوب إليك ؛ لأنك حين رحت تقص على كثيراً من المؤثرات النفسية والدوافع الوجدانية ، تلك التي يستجيب لها قلمك ويخضع لها فنك ، وضعت بين يدي كثيراً من الوثائق التي يحتاج إليها الناقد ، إذا ما أراد أن يقيم الميزان للعمل الفني مرتبطاً بشخصية صاحبه ، ومتصلا بأسباب النفس والحياة ... ومن هنا حلت نظرة جديدة إلى فنك محل النظرة القديمة ، تلك التي لم يكن أمامها أنتظر إليك غير طريق واحد ، كل معالمه سطور وكلمات !

ما قصدت من وراء هذا المقال إلى أن أسجل ما دار بيني وبينك من نقاش حول طبيعة الفن ورسالة الفنان ، وحول أمور أخرى تطرق إليها الحديث ، لأنها تتصل بنقاشنا من قريب أو من بعيد ، إن لذلك كله مناسبة أخرى أرجو أن أعرض فيها لكثير مما اتفقنا أو اختلفنا عليه ...

كل ما أقصد إليه هو أن أكشف لقراء الرسالة عن ناحية من نواحي شخصيتك الأدبية والإنسانية تركت أثرها البعيد في نفسي ؛ ومن حقك على أن أشير إليها في كثير من التقدير والإعجاب ، وهي دعوتك المخلصة إلى توثيق عرى الصداقة في الأدب ، وإيمانك العميق بجدوى الصفاء بين الأدباء ...

وأذكر أنك كتبت في هذا الموضوع مرة في (الرسالة) ، وتعرضت في سبيل تلك الغاية الكريمة لهجوم بعض أصحاب الظنون ممن لم يؤمنوا بصدق دعوتك !

أما أنا ، فقد لمست حرارة إخلاصك ونبل مقصدك في موقفين لن أنساهما لك : أولهما موقفك من الصديق النبيل صاحب (الرسالة) حين قلت فيه كلمة حق لا أدري لم غصت بها حلوق فلم تنطق بها شفاه ! وثانيهما موقفك من الدكتور طه حسين ، حين لم يجد كلمة عزاء تنسيه وحشة الطريق وتنكر الصديق ؛ لقد وقفت وحدك لتصافحه بروحك من وراء الآماد والأبعاد ...

إنك بكلمتيك هاتين قد أقمت الدليل على أن الدنيا ما زالت

مســــألة تاريخية

للدكتور جــــواد على

بهذا العنوان حرر الأستاذ الكبير ساطع بك الحصرى مقالة نشرها فى مجلة الثقافة (١) كانت بمثــــابة ردّ على ما كتبه « شمس الدين كون التاى » أحد الكتاب الأتراك فى مجلة « مجمع التاريخ التركى » التركية بمناسبة الاحتفال التذكارى الذى أقيم فى سنة ١٩٣٧ فى كابل وطهران واستانبول لمناسبة مرور تسعمائة عام على وفاة الفيلسوف الحكيم « ابن سينا » وقد تنازع على أصله الإيرانيون والأتراك والأفغان وكتبوا فى ذلك الكتب والمقالات . كل يدعى أنه منهم . ولم يتنازع الناس عليه يوم كان حياً ؛ ولكنها الدنيا لا تعرف قيم الأشخاص إلا بعد الوفاة

وقد تعرض الأستاذ « أبو خلدون » فى جملة ما تعرض له من نقاط إلى موضوع « الأتراك » وأثرهم الثقافى فى البصرة و « معبد الجهنى » وأثره فى « الجبر والاختيار » وعلم الكلام . فقد زعم « شمس الدين كون التاى » فى جملة ما زعمه أن « عبيد الله بن زياد الذى كان قد ولى على خراسان مأموراً للاستيلاء على ما وراء النهر فى عهد الخليفة معاوية كان قد أعجب إعجاباً شديداً بالثقافة المالية والمهارة العسكرية التى يتحلى بها أهل بخارى فانتخب من بينهم ألفى شاب من المهذبين المثقفين ، وأرسلهم إلى العراق بغية جعلهم معلمين للعرب وأسكنهم البصرة . وإن هذه المعلومات التى ينقلها لنا أقدم مؤرخى الإسلام البلاذرى تحل اللغز الذى كان يكتنف مسألة منشأ الحركة الفكرية الأولى فى الإسلام » .

وقد تساءل هذا الكاتب التركى : لماذا نشأت هذه الحركة فى مدينة البصرة أولا ؟ فأجاب « لأن الذين أثاروا هذه الحركة الفكرية الأولى كانوا هؤلاء الشبان المنقولين من بخارى هم وأولادهم ، وإن الشخصيين اللذين كانا وضعا الحجر الأساسى فى

(١) عدد ٤٩٧ و ٤٩٨ تاريخ ٦ يولية سنة ١٩٤٨ و ١٣ يولية سنة ١٩٤٨ .

بخير ، وأن أصحاب الفضل لن يعدموا من يقول فيهم كلمة الحق ، ولو حال بينها وبين الجهر بها كثير من الدوافع والأغراض !

لقد كان حديثنا فى آخر لقاء يدور حول هــذا الموضوع لا يكاد ينأى عنه حتى يعود إليه ... ولقــد قلت لك فيما قلت : ليتنا يا صديقى نملك كثيراً من أمثالك ؛ أولئك الذين يحفظون عهد الصديق ، ويلتمسون سبل الخير ، وينشدون وجه الحق ، ولكن أين هم ؟ أين من يطلق رأياً كرأيك بكلمة صدق تقال فى الزيات ؟ وأين من يرفع صوتاً كصوتك بكلمة عزاء توجه إلى طه ؟ ! لقد انتظرت رجع الصدى لمــا كتبت ، فضاع الأمل وخاب الرجاء ! أما أنت فقد أخجلتنى حين قلت لى : يا أخى ، حسبى أنك تقف إلى جانبى ...

وحين رحت أقص عليــك بعض ما أعلم وتعلم من جدوى الصداقة على الأدب ، متمثلا ببعض النماذج الإنسانية فى أدب العالم ، عقبت على ذلك بقولك : يا أخى ، إن الأدب الرفيع حق كله ، وخير كله ، وجمــال كله ... فلم نشوه الحق بالضغائن ، ونطمس الخير بالسخائم ، ونفرش طرق الجمال بالأحقاد ؟ ! إننا نقبل هذا فى دنيا السياسة ، لأن رجالها قوم مشدودون إلى الأرض ، ينظرون إلى يومهم وما فيه من أسلاب ، ولا يتطلعون إلى غدهم وما فيه من أمجاد !

أما فى دنيا الأدب ، فما أوسع الشقة وأبعد الفارق ، إن رجال الأدب قوم تربطهم بالسماء خيوط إلهية غير منظورة ، وما أحرى المتصلين بالسماء أن يكونوا قدوة حسنة لهــذا الجيل الصاعد فى صفاء النفس ونقاء السريرة وشرف الغاية ...

ترى لو فقد الجيل الصاعد إيمانه بنا ، نحن الذين أقمنا من أنفسنا هداة ندله على مواطن الخير ونرشــده إلى معالم الطريق ، فماذا يبقى له ليؤمن به ؟ !

لو تحقق الصفاء فى الأدب لما أنكر حق من الحقوق ، ولما ضاع قدر من الأقدار ، ولما اختل فى تحديد القيم ميزان !

يا صديقى توفيق ، مرة أخرى أعود فأقول لك : ليتنا نملك كثيراً من أمثالك ، أولئك الذين يحفظون عهــد الصديق ، ويلتمسون سبل الخير ، وينشدون فيما يقولون وجه الحق .

أنور المعداوى

بناء المذهبين المتعارضين فى اللاهوت كان كلاهما من أهل ذلك القطر . إن معبد الجهنى الذى أسس المذهب القائل بحرية الإرادة البشرية كان قد ولد فى بلدة جهينة الكائنة فى نواحى جرجان وطبرستان ، كما أن جهم بن صفوان الذى أسس المذهب المعارض لذلك هو أيضاً كان تركياً من أهل بلخ وكان قد تقدم بآرائه هذه لأول مرة فى مدينة « ترمذ » من ديار الأتراك » .

ولقد لفتت هذه الدعاوى نظر الأستاذ « ساطع الحصرى » — وهو من الحامين عن الثقافة العربية الذا بين عنها — فراجع المصادر التى استند عليها « شمس الدين » فلم يجد فيها ما يشير إلى ما ذهب إليه هذا الكاتب من نقل المثقفين والعلماء الأتراك من طبرستان إلى البصرة لا تصريحاً ولا تلميحاً ، وإنما تحدث عن سبى من السبايا الذين نقلوا كالمادة من طبرستان إلى جنوب العراق . وبهذا دل المؤرخ التركى على أنه لم يكن يستند فى قوله هذا على أى سند أو دليل .

ثم عرج « ساطع الحصرى » على قضية « معبد الجهنى » ونسبته إلى الأتراك فاستعرض الآراء فى « جهينة » وفى نسبة « معبد » فيهما ثم خرج من كل ذلك إلى أن « الجهنى » من « جهينة » القبيلة العربية المعروفة ؛ وقد استند فى نهاية حديثه إلى ما رواه السمعانى فى كتابه « الأنساب » حيث قال : الجهنى — هذه النسبة إلى جهينة وهى من قضاعة : نزلت الكوفة ومنها محلة ينسب إليها جماعة ... منهم معبد بن خالد الجهنى كان يجالس الحسن البصرى ، وهو أول من تكلم بالبصرة فى القدر . فسلك أهل البصرة بعده مسلكه فيها » .

وما كان الأستاذ — فى نظرى — بحاجة إلى إثبات أو نفى نسب « معبد » وتعيين منزلته فى العرب أو الأتراك . وفى القرآن الكريم والحديث النبوى ، وفى خطب الصحابة مثل خطب الإمام على المدونة فى نهج البلاغة ، وفى أسئلة الصحابة للرسول ، وفى الأسئلة الكثيرة التى كان يوجهها العراقيون إلى زعيمهم الإمام عن الحرب والفتنة ، أكان ذلك بعلم الله وقضائه وفى بحث التابعين فى هذه المواضيع قبل نشوء « معبد » وقبل تفوه « جهم ابن صفوان » زعيم « الجهمية » . نعم فى كل ذلك ما يغنى عن الرد على صاحب هذه المقالة . اللهم إذا زعم « شمس الدين » أن القرآن تركى وأن الرسول تركى وأن « الحديث النبوى » تركى بلغة « التاى » .

وقد أعادت هذه المقالة إلى ذهنى ذكريات « المؤتمر اللغوى الثانى » الذى عقده الأتراك فى الأستانة بين ١٨ — ٢٣ آب والذى رأسه المرحوم « أتاتورك » وحضره ما يزيد على (٦٠٠) شخص من أرقى طبقات الأتراك كان من بينهم فخامة الرئيس الحالى « عصمت إينونو » وكاظم باشا رئيس المجلس الوطنى الكبير ورجب بك السكرتير العام لحزب الشعب .

وقد افتتح المؤتمر معالى وزير المعارف فى ذلك العهد فذكر أن الأمة التركية أقدم الأمم تمدناً وحضارة ، وأنها هى التى نقلت الحضارة من أواسط آسيا إلى أوربا الشرقية والشرق الأدنى ، فأصبحت سبباً فى تحضر الأمم الأخرى وتمدنها . وادعى أحمد جواد بك أحد أعضاء المؤتمر أن اللغات الهندية والجرمانية والسلافية واليونانية واللاتينية والقفقاسية والفنية (لغة فنلندة) هى من أصل يرجع إلى اللغة التركية القديمة المسماة لغة « التاى » وهى لغة الأتراك القديمة .

وتكلم عضو آخر هو « نعيم حازم بك » عن « علاقة اللغة السامية » فزعم أن المدنية التركية كانت بمثابة خميرة المدنيات العالمية ، وأن اللغة التركية كانت الأصل لجميع اللغات ، وأن الأقوام السامية إنما أصبحت ذوات لغات واسعة غنية باحتكاكها بالأتراك . وضرب مثلا على ذلك اللغة العربية فقال إن العرب كانوا قد استمدوا كثيراً من الكلمات من اللغة التركية تصرفوا بها وعربوها وصقلوها فى جاهليتهم وفى أيام إسلامهم ، وجاء بأحد عشر قاعدة فى كيفية أخذ العرب قديماً للكلمات التركية وتعريبهم لها . وذكر أمثلة على هذه القواعد .

وأيد هذه النظرية لغوى آخر هو « يوسف ضياء بك » نائب اسكيشهر إذ بحث عن الكلمات التى انتقلت من لغة « التاى » أى اللغة التركية القديمة إلى اللغات السامية ولغة العرب على الأخص .

وساقت العاطفة بعضهم إلى الادعاء بوجود علاقات قوية بين لهجة « مايا » فى المكسيك ولغة الأتراك وطلبوا لذلك الاهتمام بدراسة هذه اللغة ودراسة لغة أخرى تشبهها هى لغة « تولتك » لمعرفة أنساب الأتراك والحصول على كلمات تركية

مرصد مراغة ومكتبتها

اللذان شيدهما نصير الدين الطوسي في بداية العصر المغولي

(صور لدنيا العرب والإسلام في ذلك العهد الرهيب)

للأستاذ ضـــياء الدخيلي

يقول الأستاذ قدرى حافظ طوقان فى كتابه (تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك) الذى نشرته مجلة « المقتطف » : إن نصير الدين الطوسى أحد الأفذاذ القليلين الذين ظهروا فى القرن السادس للهجرة ، وأحد حكماء الإسلام المشار إليهم بالبنان وهو من الذين اشتهروا بلقب (علامة) . ولد فى بلدة طوس سنة ٥٩٧ هـ الموافقة ١٢٠١ م ودرس العلم على كمال الدين بن يونس الموصلى (١) وعين المعين سالم بن بدران المعتزلى الرافضى (٢) ، وكان يتنقل بين قهستان وبغداد وتوفى سنة ٦٨٢ هـ ببغداد حيث دفن فى مشهد الكاظم .

ويقال إن الطوسى نظم قصيدة مدح فيها الخليفة العباسى ، وإن أحد الوزراء رأى فيها ما ينافى مصلحته الخاصة فأرسل إلى حاكم قهستان يخبره بضرورة مراقبته — وهكذا كان — فإنه لم يمض زمن إلا والطوسى فى قلعة الموت ، حيث بقى فيها إلى مجيء هولاكو فى منتصف القرن السابع للهجرة . وفى هذه القلعة أنجز أكثر تآليفه فى العلوم الرياضية التى خلدته وجعلته علما بين العلماء . (وكان ذا حرمة وافرة ومنزلة عالية عند هولاكو وكان يطيعه فيما يشير به عليه والأموال فى تصريفه ...) (١) وقد عهد إليه هولاكو مراقبة أوقاف جميع الممالك التى استولى عليها .

عرف الطوسى كيف يستغل الفرص فقد أنفق معظم الأموال التى كانت تحت تصرفه فى شراء الكتب النادرة وبناء مرصد مراغة الذى بدىء فى تأسيسه سنة ٦٥٧ هـ . وقد اشتهر هذا المرصد بآلاته وبمقدرة راصديه . أما آلاته فمنها (ذات الحلق وهى خمس دوائر متخذة من نحاس : الأولى دائرة نصف النهار وهى مركوزة على الأرض ، ودائرة معدل النهار ، ودائرة منطقة البروج ، ودائرة العرض ، ودائرة الميل . والدائرة الشمسية التى يعرف بها سمت الكواكب) (٢) وأما عن راصديه فقد قال الطوسى :

(١) صالح زكى — آثار باقية — مجلد ١ ص ١٧٨
(٢) محمد بن شاكر — فوات الوفيات مجلد ٢ ص ١٤٩

(١) محمد بن شاكر - فوات الوفيات - مجلد ٢ ص ١٤٩
(٢) فوات الوفيات — مجلد ٢ ص ١٥١

منسية من جهة أخرى .

وبعد فإنى أعتقد أنك بعد أن وقفت على هذه الآراء الرسمية المجملة التى أخذتها من المحضر الرسمى للمؤتمر سوف لا ترى فى مزاعم « شمس الدين » شيئاً كثيراً بالنسبة إلى تلك المزاعم .

ظن أولئك الذين أرادوا إحياء الأمة التركية أن الإحياء يكون عن طريق التبجح بالماضى والتباهى بالأجداد والترفع عن الشعوب الشرقية التى ساهمت فى تكوين التاريخ التركى ، وطرد الكلمات العربية والفارسية التى تمثل التفاعل العقلى بين الأتراك وبين العرب والفرس ، والاستعاضة عن تلك الكلمات بكلمات فرنسية ، فلم يزدهم ذلك فى نظر الغربيين منزلة ، ولم تخرجهم تلك المقالات الطويلة العريضة من عالم التفكير الشرقي ، ولم يجعلهم التاريخ الذى ادعوه لهم أمة من الأمم المعظمة التى لها فى مجلس الأمن وفى المجالس الدولية كرسى ثابت وصوت مسموع .

لا زالت تركية الحديثة التى ظن زعماؤها أنها ستأخذ مكانها تحت الشمس بابتعادها عن العرب والشرق الأدنى ، لا زالت فى نظر الغربيين تركية القديمة لا يحسب لها حساب إلا عند النظر فى كفة الميزان وفى أهميتها من حيث أنها بقرة حلوب يستفاد منها ؛ لأن المنزلة لا تأتى عن طريقة التبجح بالأجداد وبأجداد الأجداد وبالابتعاد عن الناس والانضمام إلى السباع إذا لم تكن لديه قوة السباع . والذى يتكل على الماضى ويترك الحاضر ولا يعمل له ، يهمله الزمان ويتركه يعيش فى عالم الماضى . فلنعمل بعقلية الحاضر ولنجعل أنفسنا أقوياء حقاً ، أقوياء فى تفكيرنا وفى صناعتنا وفى معاملنا ولنقدم على علوم الطبيعة التى استبدلت بالحديد الذرة ، حينئذ يقول العالم أنهم عقلاء وأنهم ناس وأن لهم شأناً بين الناس ، وحينئذ يقول العالم إن تاريخهم كان خير تاريخ وأنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس .

(دمشق) جواد علي

« ... إنى جمعت لبناء الرصد جماعة من الحكماء منهم المؤيد العرضى من دمشق والفخر المراغى كان بالموصل والفخر الخلاطى الذى كان بتفليس والنجم دبيران القزوينى وقد ابتدأنا فى بنائه سنة ٦٥٧ بمراغة ... » ويروى كتاب آثار باقية أن محيى الدين المغربى كان أيضاً أحد أعضاء لجنة الرصد ، وكيفية مجيئه هى أن هولا كو لما استولى على حلب مقر حكومة الملك الناصر سمع رجلا يصيح أنا منجم ، فأمر بالإبقاء عليه وبإرساله إلى مراغة حيث يقيم نصير الدين .

أما المكتبة التى أنشأها فى الرصد فقد كانت عظيمة جداً أكثرها منهوب من بغداد والشام والجزيرة ، ويقدر ما كان فيها بـ ٤٠٠٠٠٠ مجلد مكتوبة باليد . ونصير الدين من الذين كتبوا فى المثلثات والهيئة والجبر وإنشاء الاسطرلابات وكيفية استعمالها

ومراغة التى أقام بها الطوسى الرصد والمكتبة يحدثنا عنها ياقوت الحموى (المتوفى سنة ٦٢٦هـ) فى المعجم أنها بلدة مشهورة عظيمة أعظم وأشهر بلاد أذربيجان طولها ٧٣½ درجة وعرضها ٣٧½ درجة ؛ قالوا وكانت المراغة تدعى « افرازهروذ » فعسكر مروان بن محمد بن الحكم وهو والى أرمينية وأذربيجان فى منصرفه من غزو موقان وجيلان بالقرب منها وكان فيها سرجين (زبل) كثير ، فكانت دوابه ودواب أصحابه تتمرغ فيها ، فجعلوا يقولون ابنوا قرية المراغة ، وهذه قرية المراغة فحذف الناس القرية وقالوا مراغة ، وكان أهلها قد لجأوا إلى مروان فابتناها وتألف وكلاؤه أهلها فكثروا فيها وعمروها . ثم إنها سودرت مع ما سودر من ضياع بنى أمية وصارت لبعض بنات الرشيد . فلما عاث الوجناء بن رواد الأزدى وأفسد وولى خزيمة بن خازم أرمينية وأذربيجان فى خلافة الرشيد بنى سورها وحصنها ومصرها وأنزل بها جنداً كثيفاً . فلما ظهر بابك الخرمى لجأ الناس إليها فنزلوها فسكنوها وتحصنوا فيها ، ورم سورها فى أيام المأمون عدة من عماله ، ثم نزل الناس ربضها (فى المنجد الربض على وزن الذهب هو ما حول المدينة من بيوت ومساكن وهو أيضاً سور المدينة). وينسب إلى المراغة جماعة من المحدثين والفقهاء وبها آثار ومدارس وخانقاوات حسنة ، وقد كان فيها أدباء ومحدثون وفقهاء (١)

وقد ابتنى الطوسى (كما يحدثنا ابن شاكر فى فوات الوفيات ، وقد توفى عام ٧٦٤ هـ أى بعد وفاة الطوسى باثنين وتسعين عاماً) بمراغة قبة ورصداً عظيما (واتخذ فى ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء، وملأها من الكتب التى نهبت من بغداد والشام والجزيرة حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلد وقرر بالرصد المنجمين والفلاسفة وجعل له الأوقاف (٢) .

وكما يحدثنا ابن الفوطى فى كتابه « الحوادث الجامعة » أن الطوسى استمر مدى حياته يجمع لمكتبة المراغة الكتب ، فقد نقل أن الطوسى ورد بغداد عام ٦٦٢ هـ وجمع من العراق كتباً كثيرة لأجل الرصد الذى وضعه بمراغة عام ٦٥٧ هـ وعين فيه جماعة يتولون عمله إلى أن انتجز سنة ٦٧٢ (راجع حوادث سنة ٦٥٧ من كتاب الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة لابن الفوطى) (٣)

وابن الفوطى هذا هو أمين مكتبة مراغة . قال العزاوى فى كتابه (العراق بين احتلالين) نقلا عن شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى : إن ابن الفوطى صاحب الكتاب المعروف « الحوادث الجامعة » أسر فى واقعة بغداد وخلصه النصير الطوسى الفيلسوف وزير الملاحدة فلازمه وأخذ عنه علوم الأوائل وبرع فى الفلسفة وغيرها وأمده بكتابة الزيج وغيره من علم النجوم واشتغل على غيره فى اللغة والأدب حتى برع ومهر فى التاريخ والشعر وأيام الناس ، وأقام بمراغة مدة ولى بها كتب الرصد بضع عشرة سنة وظفر بها بكتب نفيسة وحصل من التواريخ ما لا مزيد عليه (٤) . وفى الوقت الذى يثنى فيه بعض المؤرخين على جهود الطوسى فى جمع تلك الكتب من التلف ولم شتاتها فى مكتبة مراغة كما ترى العزاوى يقول فى ترجمة الطوسى ص ٢٧٨

(١) معجم البلدان الجزء ٨ ص ٤

(٢) فوات الوفيات وفى الوافى بالوفيات للصفدى أيضاً

(٣) الحوادث الجامعة لابن الفوطى أمين مكتبة مراغة وفى كتاب العراق بين الاحتلالين لعباس العزاوى

(٤) العراق بين احتلالين للعزاوى وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى .

وهنا نقول إن أعمال هـذا الرجل مصروفة إلى مناصرة العلماء والحكماء، وأنه حينما ورد بغداد عام ٦٦٢ هـ تصفح أحوال بغداد ونظر أمر الوقوف والبحث عن الإجناد والمماليك، وفي هذه المرة جمع من العراق كتباً كثيرة لأجل المرصد الذي وضعه بمراغة (١) فهـا أنت تراه يشايع ابن الفوطي في أن تكوين مكتبة مراغة ورفع قواعدها وجمع الكتب لها كان من عمل الطوسي وأن تلك المؤسسة وليدة رغبته في تشييد بيوت العلم؛ إلا أن الأستاذ محمد كرد علي في كتابه «الإسلام والحضارة العربية» ج ١ ص ٣٠٢ بعد أن يعرض مأساة سقوط بغداد بصورة مؤلمة ويستعرض نهب نفائس دار الخلافة العباسية يذكر من ذلك نهب مكتبات بغداد وغيرها قال: «وبينما كانت في هـذا الشرق القريب كتلة صغيرة تدفع الصليبيين عن سرة بلاد الإسلام مصر والشام فتخرب مدن وحصون وتندك معالم وجوامع كان جنكيز يخرب في أواسط آسيا بلاد المسلمين. ولم تكد تدفع الشام عنها عادية الحروب الصليبية حتى جاء هولاكو بغداد يخربها ويقتل الخليفة المستعصم ويقضي على جلة الفقهاء ورجال الدولة يضع السيف في دار السلام أربعين يوماً ويستخرج الأموال والتحف بأنواع العذاب ويحرق معظم تلك المدينة الساحرة وزادت عـدة القتلى عن ثمانمائة ألف عدا الأطفال ومن هلكوا في السراديب والقنى والآبار وأحرق قبور الخلفاء ونبش عظامهم وبنى بكتب العلماء اصطبلات الخيول وطوالات المعالف عوضاً عن اللبن. وقيل إن ماء دجلة تغير لونه لكثرة ما ألقى فيه التتر من الكتب والأوراق، وقيل إنه أقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة هذا عدا ما نهب من البلاد التي احتلها فلاً في (مراغة) خزانة عظيمة من الأسفار نهبها من بغداد والشام والجزيرة حتى تجمع فيهـا زيادة على أربعمائة ألف مجلد (٢)

أما عن المرصد فإن محمد باقر الخونساري في كتابه (روضات الجنات) يحدث نقلا عن كتاب (محبوب القلوب) لقطب الدين الأشكوري وعن صاحب (مجالس المؤمنين) إن هولاكوخان بعد أن قضى على الخلافة العباسية ببغداد أمر بالرصد واختار محروسة مراغة في أعمال تبريز لبناء المرصد فرصد فيه، واستنبط الطوسي عدة من الآلات الرصدية، وكان من أعوانه على الرصد من العلماء وتلاميذه جماعة أرسل إليهم الملك هولاكو خان، منهم العلامة قطب الدين محمود الشيرازي صاحب شرح الأشراف والكليات وهو فاضل حسن الخلق والسيرة مبرز في جميع أجزاء الحكمة محقق مدقق مفيد ومستقبله في صحبة الطوسي، ومنهم مؤيد الدين العرضي الدمشقي وكان متبحراً في الهندسة وآلات الرصد توفي بمراغة فجأة سنة ٦٠٤، وفخر الدين وكان طبيباً فاضلا، حاذقاً ونجم الدين القزويني وكان فاضلا في الحكمة والكلام، ومحيي الدين الخلاطي وكان فاضلا مهندساً متبحراً في العلوم الرياضية، ومحيي الدين المغربي وكان مهندساً فاضـلا في العلوم، وضبطوا حركات الكواكب، ومات المحقق الخواجه نصير الدين وبان النقص في كتاب الزيج وانقصهم عن ذلك لم يتموه (١) وقد أضاف إليهم عباس بن محمد رضا القمي في كتابه (الكنى والألقاب) نجم الدين الكاتب البغدادي قال وكان فاضلا في أجزاء الرياضي والهندسة وعلم الرصد (٢)

ونقل ابن شاكر في فوات الوفيات وصـلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي في الوافي بالوفيات (ج ١ ص ١١٣) قال شمس الدين الحريري (وفي الوافي أنه الجزري) قال حسن ابن أحمد الحكيم صاحبنا سافرت إلى مراغة وتفرجت في الرصد ومتوليه صدر الدين علي بن الخواجة نصير الدين الطوسي وكان شاباً فاضلا في التنجيم والشعر بالفارسية، وصادفت شمس الدين ابن المؤيد العرضي وشمس الدين الشرواني والشيخ كمال الدين الأيكي وحسام الدين الشامي فرأيت فيه من آلات الرصد شيئاً كثيراً منها ذات الحلق وهي خمس دوائر متخذة من نحاس الأولى دائرة نصف النهار وهي مركوزة على الأرض ودائرة معدل النهار ودائرة منطقة البروج ودائرة العرض ودائرة الميل ورأيت الدائرة الشمسية التي يعرف بها سمت الكواكب وإسطرلابا تكون سعة قطره ذراعا وإسطرلابات كثيرة وكتباً كثيرة.

وأخبرني شمس الدين العرضي أن نصير الدين أخذ من هولاكو بسبب عمارة هـذا الرصد ما لا يحصيه إلا الله تعالى خارجاً عن

(١) الغراوي
(٢) الإسلام والحضارة العربية

(١) روضات الجنات.
(٢) الكنى والألقاب.

طرائف من العصر المملوكي :

البردة وأثرها في الأدب العربي

للأستاذ محمود رزق سليم

البردة هي القصيدة البارعة المشهورة التي نظمها شرف الدين البوصيري المتوفى عام ٦٩٥ هـ في مدح النبي عليه الصلاة السلام . وقد ولد البوصيري عام ٦٠٨ هـ في « دلاص » ، ونزح منها صغيراً مع أمه إلى « بوصير » ، وكلتا القريتين من بني سويف . وقد نسب البوصيري إليهما معا فقيل له « الدلاصيري » ولكنه اشتهر بالبوصيري وأهل الإسكندرية الآن يقولون : « الأباصيري » .

وقد عاش البوصيري متكسباً بالكتابة في دواوين الدولة ، متنقلا فيها من مدينة إلى أخرى وعانى في هذه الدواوين كثيراً من عنت كتابها ورؤسائها . وقد سجل ألواناً من فسادهم في إحدى قصائده ، فأصبحت بذلك ذات قيمة تاريخية ثمينة .

وكان بالبوصيري ميل إلى النسك والزهد ، ويبدو أن هذا الميل هو الذي أغرى به رؤساءه فنموه أحياناً مرتبه . وقد كانت خاتمة مطافه بالإسكندرية حيث مات ودفن ، وبها قبره ومسجده الشهير .

والبوصيري من أصل مغربي ، يمت إلى صنهاجة إحدى القبائل البربرية بالمغرب الأقصى ولكنه مصري المولد والإقامة . وقد قرض الشعر حتى عد من مشهوري شعراء مصر في القرن السابع الهجري . ولم يكسب هذه الشهرة من لفظ رائع أو أسلوب بارع أو معان يلفتك جمال صورتها ، ويأسرك رونق جدتها ؛ ولكنه كسبها من خصوصيات ومزايا ندرت نظائرها في غيره من الشعراء ... كتسجيلاته الشعرية لبعض حوادث عصره ، وصوره الاجتماعية .

الجوامك (المرتبات) والرواتب التي للحكماء والقومة (١) (يقصد القائمين على الأمر والقيم على الأمر هو متوليه كقيم الوقف ونحوه) .

وإن هذه الزيارة التي قام بها حسن بن أحمد الحكيم لا شك في أنها كانت بعد وفاة الطوسي وتولى شئون الرصد ابنه صدر الدين وكذلك بعد وفاة مؤيد الدين العرضي وأخذ مكانه من قبل ابنه شمس الدين كما سنبين ذلك عند نقل ما ترجمته أنا من كتاب جورج سارتون (المقدمة إلى تاريخ العلوم) ولنصغ إلى الطوسي نفسه يحدثنا عن المرصد فقد قال في كتابه (الزيج الايلخاني) إنني جمعت لبناء الرصد جماعة من الحكماء منهم المؤيد العرضي من دمشق والفخر المراغي كان بالموصل والفخر الخلاطي الذي كان بتفليس والنجم دبيران القزويني وقد ابتدأنا في بنائه سنة ٦٥٧ بمراغة والأرصاد التي بنيت قبلي وعليها كان الاعتماد دون غيرها هي رصد أبرخس وله مذ بني (١٤٠٠) سنة وبعده رصد بطليموس بـ (٢٨٥) سنة وبعده في ملة الإسلام رصد المأمون ببغداد وله (٤٣٠) سنة والرصد البتاني في حدود الشام والرصد الحاكمي بمصر ورصد بني الأعلم ببغداد ولها (٢٥٠) سنة .

وقال الأستاذون إن إرصاد الكواكب لا تتم في أقل من ثلاثين سنة لأن فيها تتم دورة هذه السبعة (الكواكب) فقال هولاكو أجهد في أن رصد هذه السبعة يتم في اثنتي عشرة سنة قلت اجتهدت في ذلك(١) .

قال ابن شاكر وكان النصير قد قدم من مراغة إلى بغداد ومعه كثير من تلامذته وأصحابه فأقام ببغداد مدة ومات وخلف ثلاثة أولاد(٢) .

وقد نقل العزاوي في كتابه (تاريخ العراق بين احتلالين) في الملحق ناقلا عن كتاب تركي (إسلامده تاريخ ومؤرخلر) إن الطوسي حين ورود هلاكو إيران اتصل بعلماء الصين وأنه بأمر من هولاكو اقتبس الزيج الايلخاني من عالم صيني جاء إلى إيران يدعى (توميجي) وكان قد استفاد منه كثيراً مما يتعلق بقواعد النجوم فكان بينهما تبادل علمي واتصال وثيق(٣) .

(البقية في العدد القادم) ضياء الدخيلي

(١) فوات الوفيات والوافي بالوفيات

(١) الزيج الايلخاني للطوسي

(٢) ابن شاكر والصفدي . (٣) اسلامده .

والبردة إحدى هذه الخصوصيات . فإن تلك الصوفية التي بدت فيها وفي غيرها من مدائحه النبوية ، أثر من آثار الحياة الروحية التي نزع إليها بعض الناس في هذا العصر امتداداً لنظيرتها في العصر الأيوبي الذي عاش فيه ابن الفارض الشاعر المتصوف المشهور . وقد كانت تلك الحياة بمثابة رد فعل لما انتشر بين المسلمين من مفاسد كثيرة . غير أن ابن الفارض اتجه بشعره إلى الغزل الإلهي ، بينما انصرف البوصيري إلى الغزل النبوي . فبردته بما فيها من وجد وحنين ولهفة وشوق ، ودموع وذكر ديار ، أقرب إلى باب الغزل منها إلى باب المديح أو الشعر المذهبي . وهذا هو الفن الشعري الجديد الذي ولده البوصيري في الشعر العربي ، فكان بذلك فذاً بين شعراء المديح النبوي من لدن الأعشى وكعب وحسان ومن بعدهم .

ونزعة الحب التي نلمسها في نفس البوصيري تفسر لنا في يسر وسهولة تلك الأوصاف التي نشهدها في ثنايا البردة وغيرها ، يقدس بها الرسول ، ويضفي عليه هالات من السمو ، وبخاصة إذا قرن اسم الكريم باسم غيره من أنبياء وملائكة ، وقد يعيبها عليه بعض النقاد ويعتبرونها مبالغات لا داعي إليها ، بينما هي في قرارة نفس الشاعر ، أضيق الألفاظ وأيسر الأساليب التي تعبر عما فيها من إحساس صادق وشعور دافق ، هو وليد الحب الخالص الصراح الذي لا شائبة فيه . فقدسية المحبوب والتسامي به ، أبسط مظاهر الحب الصادق .

لم يكن البوصيري — فيما أعتقد — شاعراً طامحاً إلى الشهرة يسعى إليها عن طريق شعره . ولذلك لم يتكسب به ، ولم يسع إلى باب من أبواب الرؤساء . وكذلك لم يكن يعنيه أن يكون شعره جيداً بديع النظم رائع الأسلوب ، بقدر ما كان يعنيه أن يكون صدى لما في نفسه ، ورجعاً لهجسات فؤاده . فأغلب شعره شعر شخصي يسجل خواطر الشاعر وأحاسيسه النفسية . وقد خرج البوصيري مرة عن طبيعته ، فنظم قصيدة غزلية وروى حكاية له مع جارية حسناء ، فدل ما فيها من الغزل الساذج وحيله البدائية ، على أن الرجل مقلد في غزله ، وأن الغزل ليس أصيلا في نفسه . — أما غزله النبوي وبخاصة في البردة ، فإن شخصيته تبدو فيه ناطقة وثابة في كل بيت . فالبردة منظومة نفسية جاشت بها نفس الشاعر في الباطن ، وعلق عليها آمالا ، قبل أن يتحرك بها لسانه ويجنح إليها في الظاهر . — وهذا أيضاً يفسر لنا الرؤى التي رآها البوصيري وأصحابه ، متصلة بهذه القصيدة ونظمها ، وتفسر لنا المثوبة الجارفة التي استطاع بها هذا الرجل أن يعالج نفسه من فالجه الذي أصابه . فإنه لما حار في علاجه فكر في نظم قصيدة نبوية ، يستشفع بها الله أن يعافيه . فنظمها وكرر إنشادها ثم بكى ودعا وتوسل ونام ، فرأى النبي عليه الصلاة السلام في نومه فمسح بيده المباركة على مكان دائه ، وألقى عليه « بردة » فانتبه من نومه وفيه نهضة وأحس بالشفاء .

ونحن لا نرتاب في صحة الأحاديث النبوية المتصلة برؤيته الشريفة ، فقد روى البخاري عن أبي هريرة أن النبي عليه السلام قال : « تسموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي ، ومن رآني في النام فقد رآني حقاً ، فإن الشيطان لا يتمثل على صورتي ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . وبعد فهل كان البوصيري كاذباً في دعوى الرؤيا ؟ هذه مسألة يخشى من ينصف نفسه أن يجازف بالحكم فيها على غير ظاهرها ، وبخاصة أن البوصيري يعلم أن من كذب على النبي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار .

ليس هناك ما يمنع البوصيري من أن يرى النبي في نومه ، وليس هناك كذلك ما يمنع من أن يشفى من فالجه بسبب قصيدته ؛ وقصيدة البردة — وبعضهم يسميها البرءة — لا تشفي ولا تبرىء من سقم . فالله سبحانه وحده واهب البرء والشفاء . ولكن إذا أخلص مريض النية ، واتجه إلى الله بقلب مؤمن ودعاه واستشفع بالنبي عليه السلام ، أو بتلاوة القرآن ، أو قراءة البردة أو نحوها ، فليس هناك ما يمنع أن الله يستجيب الدعاء . والمريض في حاجة قصوى إلى مثل هذه المثوبة يعين بها طبيبه على علاجه .

وأطلق لفظ « البردة » على قصيدة البوصيري ، لما لابس نظمها والاستشفاع بها من ذكر بردة النبي عليه السلام . وقد روى أن الصاحب بهاء الدين بن حنا — وكان صديقاً للبوصيري — احتفظ نسخة من القصيدة لديه . ثم أصيب سعد الدين الفارقي برمد أشرف منه على العمى ، فرأى في النام هاتفاً يدعوه إلى

الصاحب بهاء الدين ليأخذ منه « البردة » ويضعها على عينيه فيشفى بإذن الله ، فذهب إلى الصاحب وطلب منه « البردة » ، فقال له الصاحب «ما أعرف عندى من أثر النبى صلى الله عليه وسلم بردة » . ثم تذكر قصيدة البوصيرى ، فقال لعلها المراد بالبردة ، وأعطاه إياه . ومن ثم سميت القصيدة بالبردة .

وبعد ، فأبيات البردة نحو مائة وستين بيتاً . وهى أجود مدائح البوصيرى وأسلسها أسلوباً وأرقاها عبارة وأكثرها رونقا ، وأجمعها أغراضاً وأروعها أمثالا وأوفرها معانى تنشدها العامة وتكرر إنشادها فى مناسبات كثيرة تيمنا بذكر ممدوحها ، ومن شأن التكرار فى مثل هذه المناسبات أن يعقب الملل ، ويورث النفور ، ويبعث على الابتذال ، ومع ذلك لا تزال القصيدة محبوبة أثيرة عند العارفين .

وقد تناول الشاعر فيها — فضلا عن ذكر الديار والأحبة ووصف الشوق والحنين ، والنزوع الصوفى والدعوة إلى الزهد والتحذير من الهوى إلى غير ذلك — موضوعات السيرة النبوية وما امتاز به الرسول الكريم من عظيم الصفات ، وهذه الموضوعات منثورة فى كتب السيرة ، فليس للشاعر هنا فضل ابتكار ، وإنما فضله فى نظمها هذا النظم السائغ حتى انحدرت إلى الأسماع جميلة الإيقاع ، ورددها اللسان رائعة الألحان . وقد زودها الشاعر ببعض الحلى البديعة التى لا يعل وسوامها ولا يثقل جرمها .

قال فى المطلع :

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق فى الظلماء من اضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا ... وما لقلبك إن قلت استفق يهم

وقال فى التحذير من هوى النفس :

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

وقد تناول الحديث عن « النفس » فى عدة أبيات تصلح للدراسة النفسية ، يتناول فيها الدارس مسألة الغرائز وتربيتها ، والعادات وتكوينها ، بما لا يقل فى جملته عن الدراسات النفسية الحديثة . ومن هذه الأبيات قوله عن النفس بعد أبيات عن الشيب :

من لى برد جماح من غوايتها ... كما يرد جماح الخيل باللجم
فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها ... إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

ومن أبياته فى وصف الرسول عليه السلام قوله :

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى ... أن اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب أحشاءه وطوى ... تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم
وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم

وبعد ، فإن الحديث لا يتسع لإيراد أبيات هذه القصيدة الفريدة ، التى كان نظمها فتحاً مبيناً فى الأدب العربى ، أفاء عليه ثروة لولاه ما فتحت مغالق كنوزها . لا نغلو فى ذلك ولا نبالغ . والحق أن البردة بحاجة إلى رسالة مستقلة تتحدث عنها وعن أثرها ، وقد تناولها الدكتور النابه زكى مبارك بالحديث فى كتابه الممتع « المدائح النبوية » ؛ ولكن إذا علمنا أن البردة قد وضعت لها شروح عدة ، وعورضت ، وشطرت ، وخمست ، وسبعت ، ووضعت شروح أخرى لكثير من هذه المنظومات الناشئة عنها ، علمنا أى ولوع ذلك الذى انتاب الشعراء والكتاب بالبردة من لدن عهد البوصيرى إلى عهد أمير الشعراء شوقى بك ، وعلمنا أى إيجاز مخل ذلك الذى نتوخاه هنا فى هذه العجالة ونحن نتصدى للحديث عن أثر البردة فى الأدب العربى .

وفى دار الكتب المصرية ، ودور الكتب فى الأقاليم ، وفى كشف الظنون وكتب التراجم وتاريخ آداب العربية لجورجى زيدان ، وفى غير ذلك من المظان إشارات إلى مؤلفات شعرية ونثرية ، كانت البردة سماء وحيها ومتنزل إلهامها . وهى فى انتظار البحث وترقب التمحيص . ولا تضاهى البردة فى هذا الفتح قصيدة أخرى .

وفى الحق أن بعض القصائد العربية حظيت بنصيب من مثل هذه العناية فشرحت أوعورضت أونحو ذلك ، مثل «بانت سعاد»

ولامية العجم ، ولامية ابن الوردي . ولكن لم تبلغ إحداها شأو البردة ، ولا شقت غبارها . — ونذكر هنا بعض هذه المؤلفات على سبيل المثال والاستدلال . منوهين قبل ذكرها ، بأن هذا الفن الشعري الجديد — وهو الغزل النبوي — قد سرت روحه في كثير من شعراء المديح النبوي بعد البوصيري ، بل في جميع الشعراء ، وقد قضى نهجه الجديد على نهج من تقدمه من شعراء هذا المديح ، وتأثر به — بلا ريب — ابن نباتة وابن حجر وغيرهما في نبوياتهم . هذا وممن شرح البردة : الشيخ الباجوري المتوفى (١١٩٨ هـ) وحاشيته مشهورة ، والشيخ خالد الأزهري المتوفى (٩٠٥ هـ) ، ومن شراحها الجلال المحلي المتوفى (٨٦٤هـ) وشمس الدين بن الصائغ (٧٧٦ هـ) وزين الدين زكريا الأنصاري (٩٢٦ هـ) وشهاب الدين الأقفهسي المعروف بابن العماد (٨٠٨هـ) وعلاء الدين مصنفك (٧٧٥ هـ) وشهاب الدين القسطلاني (٩٢٣ هـ) وأبو عبد الله المرزوق المغربي (٧٨١ هـ) .

وقد عارض البردة كثيرون ، ومن أبرزهم في العصر الحديث : البارودي في قصيدته « كشف الغمة » وهي في نحو ٤٥٠ بيتاً ، وشوقي في قصيدته « نهج البردة » . — ومن أبرزهم في العصر المملوكي وما بعده أيضاً ، أصحاب البديعيات . والقصيدة البديعية — كما نعتقد — منظومة عارض بها ناظمها بردة البوصيري ، فالتزم بحرها ورويها وغرضها . على أن هذا الغرض — وهو المديح النبوي — ليس الهدف الأول من المعارضة ، وإنما إيراد الأنواع البديعية هو الهدف الأول المقصود .

أما المديح فقد كان من أهم الشبهات التي جذبت أصحاب البديعيات إلى النهج البوصيري والنظم على نمط البردة . وقد التزموا أن يضمنوا كل بيت من أبيات البديعية ضرباً من ضروب البديع ، وزاد عز الدين الموصلي هذا الالتزام بأن التزم التورية بكلمة ما عن اسم الضرب البديعي المضمن . فأصبحت قيود البديعية خمسة ، غير أن القيد الخامس لم يلتزمه كثير من البديعيين . وفي الوقت نفسه ترى أبياتاً في بديعية عز الدين اقتصر فيها على التورية باسم النوع البديعي دون ذكر مثاله .

وقد نظم بعض الأدباء فيما بعد ، بديعيات لم يلتزموا فيها بحر البردة ورويها وغرضها ، وهذا في رأينا انحراف عن الشروط الأولى للبديعية ، وخروج بها عن جادتها الأصلية .

ومن أصحاب البديعيات : صفي الدين الحلي (٧٥٠ هـ) ، وابن جابر الأندلسي الضرير (٧٨٠هـ) وعز الدين الموصلي (٧٨٩هـ) وتقي الدين بن حجة الحموي (٨٣٧ هـ) وشرف الدين بن المقري اليمني (٨٣٧ هـ) وتاج الدين بن عربشاه (٩٠١ هـ) والجلال السيوطي (٩١١ هـ) وعائشة الباعونية (٩٣٠ هـ) ولها بديعيتان وعبد الغني النابلسي (١١٤٣ هـ) وله بديعيتان أيضاً .

ومبتكر فن البديعيات ، صفي الدين الحلي ، وقد صرح بذلك في مقدمة بديعيته ، وروى رؤيا ذات شبه برؤيا البوصيري ، وذلك أنه عرته علة طالت مدتها واشتدت شدتها ، فرأى النبي عليه الصلاة والسلام في نومه ، يتقاضاه المدح ويعده البرء . فنظم على إثر ذلك بديعيته . ومن يقرأ ديوان الحلي يشعر أن الرجل قد طاع له من البديع ذهبه ، ولان حديده ، فاستطاع أن يبتدع في صوغه حلى قل أن يجاريه في صوغها شاعر .

وهذا مما يؤيد دعواه في ابتكار فن البديعيات . — على أن الدكتور زكي مبارك في كتابه « المدائح النبوية » رأى أن مبتكر هذا الفن هو ابن جابر الأندلسي ، ولم يقم وزناً لهذه النزعة البديعية الجارفة التي طغت على نفس صفي الدين ودعته إلى التجديد في البديع ، ولا لسبقه ابن جابر في الوفاة بنحو ثلاثين عاماً . وقد عقب على ما ذهب إليه الدكتور ، زميلنا الفاضل الأستاذ أحمد موسى المدرس في كلية اللغة العربية ، فكتب فصلا ممتعاً عن البديعيات ، في رسالته الشائقة « الصبغ البديعي » . وقد كشف كشفاً في هذا الموضوع له خطره ؛ إذ وجد أن الشاعر أمين الدين السليماني الأربلي المتوفى عام ٦٧٠ هـ ، قد نظم قصيدة غزلية في ستة وثلاثين بيتاً ، في كل بيت منها نوع بديعي . وعزز الأستاذ كشفه بما رواه ابن معصوم المتوفى عام ١١٢٠ هـ شرحاً على بديعيته من « أنه كان يظن أن صفي الدين أول من نظم أنواع البديع على هذا الأسلوب حتى وقف على قصيدة أمين الدين السليماني » .

ورأى الأستاذ أن أمين الدين المذكور هو مبتكر فن البديعيات . — على أني أعتقد أن المسألة لا تزال عند موقفها

الأول ، وأن كفة صفى الدين لا تزال الراجحة . وأن الفارق بين أمين الدين وصفى الدين فى ابتكار فن البديعيات ، كالفارق بين زهير وأبى تمام أو المتنبى فى ابتكار الحكمة ، وأنت ترى صفى الدين فى مقدمة بديعيته يقول إنها نتيجة لدراسة سبعين كتاباً فى فن البديع .

وبعد ، فأى خطر للبديعيات ، حتى نعنى بها كل هذه العناية ؟ البديعيات — على أى حال — فن شعرى جديد فى حينه بلغت به النزعة البديعية قمتها شعراً ، كما بلغتها بالمقامات نثراً .

هذا إلى أن البديعيات نمط من شعر العلوم والفنون ، لم يطرق قبل هـذا العصر . ومنزلة البديعية فى علم البديع ، كمنزلة ألفية ابن مالك — مثلا — فى علمى النحو والصرف . — هذا إلى أن كثيراً من البديعيات وضعت لها شروح قيمة فأضافت بذلك ثروة جديدة إلى علوم البلاغة والأدب ، ومن أجل شروحها « خزانة الأدب » لتقى الدين بن حجة الحموى .

هذا . وقد شطر البردة كثير من الأدباء . منهم فى عصرنا الحديث : عبد العزيز باشا محمد ، ومحمد بك فرغلى . ومنهم الشيخ أحمد بن شرقاوى الخلفى (١٣١٦هـ) والشيخ أحمد بن عبدالوهاب الجرجاوى (١٢٥٤ هـ) وأحمد بن عثمان الدوانى الزبيرى ، فرغ من تشطيره عام (١٢٠١ هـ) والشيخ أحمد الحفظى اليمنى — كان حياً عام ١٢٩٣ هـ — .

وخمسها بعض الأدباء ومنهم محمد بك فرغلى ، ومنهم زين الدين طاهر بن حبيب الحلبى (٨٠٨ هـ) ومجد الدين اسماعيل الكنانى القاهرى (٨٠٢ هـ) وبرهان الدين الهمذى (٨٤٦ هـ) وفتح الدين بن الشهيد (٧٩٣ هـ) وزين الدين القرشى (٨٢٨هـ) وشمس الدين محمد الفيومى — لعله من أدباء القرن التاسع — وعبد الرحيم السيوطى المالكى الجرجاوى توفى بعد عام (١٣٢٠هـ) . وفى دار الكتب المصرية مجموعة خطية بها تسعة وستون تخميساً من بينها تخميس لابن حجة الحموى . ومجموعة أخرى خطية بها ثلاثون تخميساً .

وسبعها بعض الأدباء ، ومنهم الشيخ محمد اللطفى المصرى الخلوتى ، من علماء القرن الحادى عشر الهجرى . وقد التزم أن يبدأ كل تسبيعة بلفظ « محمد » والقاضى ناصر الدين البيضاوى (٦٩٦ هـ) والتزم أن يبدأ كل تسبيعة بلفظ الجلالة .

وهناك شك فى نسبة هذا التسبيع إلى البيضاوى ، فقد نسب إليه مرة ، ونسب إلى الأمير عثمان بك ؟ مرة ، ونسب إلى شهاب الدين أحمد بن عبد الله المالكى المكى مرة أخرى . وقد قرأت هذا التسبيع نفسه فى دار الكتب بالمنصورة منسوباً إلى أديب اسمه صلاح الدين أحمد بن محمد الرفاء الدمشقى ، وهو بها مخطوط (رقم ١١٧٣ أدب) . فمسألة هذا التسبيع تحتاج إلى شىء من التحقيق .

وبعد ، فها نحن أولاء نرى من حديثنا الوجيز عن البردة أنها استطاعت وحدها أن تنشىء دولة أدبية كبرى لها جنودها وعتادها . وأن هذه الدولة كانت ذات صولة فى العصر المملوكى . ثم أخذ ظلها يتقلص شيئاً فشيئاً ، حتى كادت أحداث العصر الحديث الجارفة تمحى آثارها وتطمس أخبارها .

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

الشعر في السودان

للأستاذ علي العماري

— ٤ —

لم يعد للشعر في العصر الحديث ما كان له في العصور القديمة من سيطرة وقوة وإيحاء، ولم يصبح — كما كان — مرآة صادقة تظهر فيها حياة الأمم، وتخلد فيها مآثرها ومثالبها. ولئن كنا نستطيع أن نستخرج من الشعر الجاهلي — مثلا — صورة صادقة لحياة العرب في باديتهم فنرى فيها مضارب خيامهم، ومسامع حروبهم، وأسراب ظبائهم ونسائهم ونعمهم وشائهم تضطرب في صحرائهم إلى غير ذلك مما حفلت به حياتهم، واصطبغت به معيشتهم، لئن كان ذلك في مقدورنا فإننا لا نستطيع أن ندعي أن أمة من الأمم الحديثة كان شعرها (ديوان حياتها)، ولذلك أسباب كثيرة تختلف باختلاف الأمم.

ولا شك أن من الأسباب القوية في هذا الشأن قصور الشعراء وتقصيرهم، وإن كان ذلك لا يرضى بعض المدارس الحديثة التي ترى أن الشاعر لم يخلق ليكون حاكياً لأحوال المجتمع، وإنما خلق ليرسم للناس صورة نفسه، فالشاعر الذي يودع شعره الأحداث السياسية والاجتماعية ليس بشاعر، إذ أن الشاعر لم يخلق ليكون واعظاً أو مرشداً للجماعات، وإنما خلق — زعموا — للفن وحده، وليرسم نفسه بهذا الفن البديع، فيتحدث عن أفراحها وآلامها، وعن عواطفها ورغباتها، وقد كان لهذا المذهب أثره القوي في ناشئة الشعراء، فرأيناهم لا يكادون يتعدون دائرة خواطرهم الضيقة، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فزوروا على أنفسهم، فأخذوا ينوحون وهم يضحكون، ويشببون تشبيباً عذرياً وهم في اللذات غارقون، وهكذا أرادوا أن يصدقوا فكذبوا، وهربوا من تصوير حياة الجماعة فصوروا أنفسهم مشوهة!.

لهذا ولأسباب أخر فقد الشعر مكانته، ولم يستطع أن يكون سجلا لحياة الجماعة، نستطيع أن نقول هذا في الشعر المصري، ونستطيع أن نقوله في الشعر العراقي، وتستطيع أن نقوله في شعراء الشام والحجاز، ونستطيع أن نقوله في الشعر السوداني، وإن كان هروب الشعراء السودانيين من حياة المجتمع أوضح، وربما اعتذر الشعراء الذين عاشوا في أوائل هذا القرن عن تخلفهم بقول الشاعر:

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت، ولكن الرماح أجرت

ولكن ما عذر هؤلاء الشعراء الذين رأوا رماح قومهم تنطق الأخرس، حتى هذه الرماح التي أجرت كان على الشعراء أن يبكوها، وأن يستنهضوها، كما يقول أحدهم:

أنظر إلى السودان إن به شباباً ناهضين قد الزمان بهم وما هم بالشباب القاعدين

غير أن الذي يعزينا أن الشعر العامي لا يزال يحتفظ بقوته في هذا المعنى، فلو هيء لباحث أن يدرس الشعر العامي وأن يتبين اتجاهاته لظفر بشيء كثير من صور الحياة التي يحياها هؤلاء. ولقد اطلعت على شيء من شعر السودان العامي فرأيت فيه تصويراً دقيقاً لبعض ما يكتنف القوم، وخيل إلى أني لو استطعت أن أظفر بمجموعة من هذا الشعر لتمكنت أن أنقل عنها كل مظاهر الحياة في الريف السوداني.

أما الشعر المعرب فالبون شاسع بينه وبين ما تضطرب به الحياة من شتى المظاهر والاتجاهات ولا سيما في أوائل هذا القرن، فإن الشعراء الذين عاشوا منذ ثلاثين سنة حصروا أنفسهم في دائرة ضيقة جداً أكثرها احتذاء للشعر القديم في أغراضه، ولكن حين تقدم الزمن، وبدت مظاهر النهضة تأخذ طريقها إلى الحياة، وكانت بقية من هؤلاء الشعراء لا تزال تنعم بنسائم السودان البليلة الرخية، وتشرب من ماء النيل المظيم، لم تجد هذه البقية بداً من أن تشارك ناشئة الشعراء في الحديث عن هذه المظاهر، وإن بقيت من ناحية الأسلوب والمعنى وكثير من الأغراض متشبثة بأذيال القديم. والدارس يلاحظ أن هؤلاء الشعراء كانوا يصلون إلى هذه الأغراض بطرق ملتوية، فكانوا يتخذون المناسبات الدينية والمدائح النبوية سلماً إلى ما يريدون، فينفسون بذلك عن بعض الرغبات المكبوتة في نفوسهم، وإن بقيت أقلامهم مجفلة عن تصوير المجتمع، بل منهم من كان يرى أنه من غير اللائق أن يتحدث الشاعر عن مثالب قومه، ثم تقدم الزمن خطوة أخرى فرأينا الشعراء يدخلون المجتمع من باب أوسع فيتناولونه من نواح كثيرة، أرهفوا آذانهم، وفتحوا أعينهم، لما يحدث أمامهم من خير وشر، فصوروا بعضاً وأمسكوا عن بعض

وكان للتعليم نصيب كبير من عنايتهم ، فلا تفتح مدرسة ، ولا يتخرج فوج جديد من كلية حديثة ، ولا تنشأ فرقة تمثيل إلا قالوا ، وهنأوا البلاد ، وتغنوا لهـا الخير والتقدم ، كما كان للغة العربية قدر وفير من اهتمامهم ، وكذلك ألحوا إلحاحات خفيفة إلى بعض ما يسيطر على العقول من خرافات . وهنـا أعتب على شعراء الأمصار عتباً شديداً ، وأرى أنهم أغضوا عن تقاليد غير طيبة كان يجب أن يحاربوها كما حاربتها الحكومة ، وكما حاربتها الأذواق السليمة ، وأهمس في أذن الشاعر الصالح الشيخ عبد الله عبد الرحمن الذي يقول :

سأبلغ جهدي في القصائد حرة على أن جهد الشعر في الشعب ضائع
فروض أؤديها وشكوى أبثها وما أنا ذو بأس وما أنا طامع

والذي يقول :

خذوها بي أبي قوافي عاتب عليكم بها (لا عن جفاء ولا صد)
قواف ألقاها من الوحي صادقـاً وأرسلها من حيث تجدي ولا تجدي

أهمس في أذنه كيف فاته أن يؤدي فروض الشعر في هذه التقاليد ، وكيف لم يرسلها دون أن ينظر أتجدي أو لا تجدي ؟ وأين جهده الذي بلغه في هذا الذي أشير إليه ؟ كما بلغ جهده في نواح أخرى كثيرة .

أليس بعجيب أن يقف الشعراء على الشاطىء ، ويجفلوا عن الخوض في أمور هي القذى في الأعين ، والشجى في الحلوق .

بعد هذا نريد أن نستخرج بعض مظاهر للمجتمع السوداني من دواوين الشعراء ، وأنا أحصر طرفي هنا في ديوانين اثنين ، وبعض مقطوعات أخرى ، وأنا مضطر لهذا ، فمن جهة لم يهيأ لي أن أحصل على كل الدواوين التي خرجت ، والشعراء لم يساعدوني بإرسال شيء من أشعارهم منذ بدأت أكتب هذا البحث ؛ ومن جهة أخرى لم أجد فيما اطلعت عليه من شعر ما يعينني في هذه الناحية إلا هذان الديوانان ، فالأول ديوان (الطبيعة) للشاعر حمزة الملك ، فإن فيه صوراً صادقة ، من ذلك صورة (الحاوي) وقد التفت حوله الناس تخدع أبصارهم ، بل خدع الشاعر نفسه حيث يقول :

قد رأيت المحال رأي عيـان ليس في حاجة إلى برهان
رجل كالرجال جاء بمـا يعـ ـجز عن فعله بنو الإنسان
يأمر المـاء بالوقوف فينصـا ع ، وإن شاء لج في الجريان
يضع الشيء في يديك فتلقا ه على الرغم منك في يدان

وبعد أن يعدد الألاعيب أخرى من فعل الحاوي ، وهي كلها غريبة عجيبة يقول :

هذر ما تراه أم هو جـد ومن الناس أم من الشيطان ؟
زعموا أنه الخداع ولكن كيف في الشيء تخدع العينان؟

ثم ينتقل بعد كل هذا طفرة واحدة ، فيسوق إليك حجة على أن للكون إلهاً فيقول :

أيها الملحدون هـذي أمور من صنيع الجهال والغلمان
عللوها فإن قدرتم فقولوا إنه لا إله للأكوان

ونترك هذه الصورة لنأخذ في صورة أخرى حيرت الشاعر أيضاً ، ولعبت بلبه ، وانتهى أمره فيها إلى أن يبقى في حيرته ، تلك هي صورة صاحبة (الودع) . (فأم عباس) قد أنبأته بالغيب وقد وقع ما أنبأته به ، وقد كان ينكر عليها أن تعرف شيئاً من عالم المستقبل ، فراهنها ، ونذر لها نذراً ، ولكنها فازت بالرهان ، واستحقت النذر ، غير أن للشاعر عقلا لا يخضع لهذه الترهات ، وهكذا يحاربين عقله ، وبين الواقع الملموس :

أرت أم عبـاس أعجوبة تضل كبير الحجى (بالودع)
وما أم عبـاس إلا عجو ز تـقي بها نزعة الورع
تجادل أني أنا جادلتها كمن هو في فنه قد برع
وتحلف إن لم أنل ما ترى فليست تعود (لخط الودع)
فواعجبي كيف نبـأتها وُديماتهـا بأمور تقع
وواعجبي كيـف في عصرنا تصح الخرافات في المجتمع
وإن كنت صدقتها ما ادعتـ ـه فمـا أنا إلا لعقلي تبع
أمـور أرى بعض أسرارها ن صدقاً به من رآه اقتنع
أصـدق منها صحيحاتها وليست تجوز على الخدع
ولكن من الحق أن نترك الـ ـباب مشايعة للبـدع

وهكذا لا يصل الشاعر إلى قول فصل في هذا الموضوع ، فيبقى في ظلام دامس يخبط يمنة ويسرة ، ولا يهتدي .

ويتحدث هذا الشاعر عن نماذج بشرية رآها في حياته ، فمن فتى كالذئب باسم السن يظهر الإخلاص ويسر الغدر ، ومن شيخ شاب في اللؤم ، وحرم زوجه بألف طلاق ولكنه لا يزال يباشرها ، ومن رجل يظهر في زي النساء ويفخر بالقوام

الرشيق ، والخد الأسيل ، ومن دعى موغل فى كبره ، يدعى الجود وهو سليل بيت البخل والشح ، ومن جاهل يدعى العلم ، وما هو إلا ببغاء تهرف بما لا تعرف ، ثم ينتهى به المطاف إلى أن يقول :

نخـــر كل منهم أن له ألف وجـه بين صبح ومساء

وفى قصائده (سافرة) و (لقيط) و (سأم قاتل) و (زميل) صور ناطقة فى المجتمع .

أما الديوان الآخر فهو (الفجر الصادق) للشيخ عبـد الله عبد الرحمن ، والحق أن صاحب هذا الديوان من المخضرمين فهو يأخذ خير ما فى المدرسة القديمة ، ويتناول أشياء كثيرة من المدرسة الحديثة ، وفى هذا الديوان مجتمع سودانى ، وأهم مايأخذ القارىء فى هذا الديوان أمران .

عنايته بالتعليم ، وهـذا الموضوع قد استغرق جزءاً كبيراً منه ، فيتحدث عن المدرسة الأهلية ، وعن مدرسة الأحفاد ، وعن كلية غردون ، وعن تكريم البعثات العلمية ، وعن يوم التعليم ، إلى أشياء كثيرة من هذه الموضوعات .

ونستطيع أن نقول أنه يندر أن يفلت من بين يديه أمر يتعلق بالتعليم دون أن يقول فيه ، ومن شعره فى كلية غردون .

لهـا علينا وإن ضنت بموعود قديم عهد وحق غير مجحود

كم خرّجت من فتى حلو شمائله مشمر الساق فى الأتراب محمود

كأنما الجهل طوفان يحيط بنـــا

وهى السفينة قد أوفت على الجودى

يا معهدا طاب ماضيه وحاضره لا كان ربعك يوماً غير معهود

لا أنت فى واجب السودان وانية ولا مقامك فيها غـير محمود

قالوا وفود على أبوابك ازدحمت وهل سمعت بعذب غير مورود

وعنايته باللغة العربية ، وشعراء السودان يولون هذه الناحية نصيباً من جهودهم ، ولـكن الشيخ عبد الله صريح كل الصراحة حين يتناول هذا الموضوع . قرأت قصيدة طويلة للشيخ عبد الله البنا عنوانها (دمعة على اللغة العربية) بكى فيها حاضرها وأشاد بماضيها ، وللشيخ عبد الله أبيات كثيرة ، يسوقها كلما سنحت له الفرصة ، يقول فى قصيدة نبوية :

بنى وطنى أن قمت للضاد داعياً فـــإنى أدعو للتى هى أقوم

أرى الضاد فى السودان أمست غريبة

وابناؤها أمست لهـــا تتجهم

توات وما دمع عليها بفائض وما أحـد منهم لهـا يتألم

ونبئت بالسودان قومـــاً تآمروا

على اللغـة الفصحى أساءوا وأجرموا

ويقول مخاطباً قومه وعشيرته بعـد أن أشاد بجهود مؤتمر الخريجين فى التعليم .

بنى عمنا لبـوا النداء فحسبكم تنازع مأموم بهـــا وأمام

فلستم بأحياء ولستم أعزة إذا الضاد لم يؤذن لها بقيام

وعلى ذكر الخلاف نقول إن صاحب الديوان قد أشار إليه غير مرة ، ودعا إلى اتحاد الـكلمة ، ومن كلماته الرقيقة فى ذلك

أفى الدار مصغ للحديث فسامع أم الدار قد سدت عليها المسامع؟

توهمت آيات لهـا فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

وطوفت أستبكى عيون قصائدى عليها ، وقد تبكى القصيد الفجائع

مشى بين أهليها الخلاف فأصبحوا

تصدهمو عن كل خـــير موانع

أرى النار شبت فى نواح كثيرة ولم ينج متبوع ولم ينج تابع

إذا القوم لجوا فى الغواية كلهم فقبيح مـدفوع وقبيح دافع

ولا نختم هذا الحديث حتى نشير إلى هذه الصورة التى رسمها الشاعر الشيخ حسيب على حسيب ، وهى صورة طالما رأيناها ، وألمنا لهـا :

عجباً أرى المقدام أصبح مذنباً يقصى وذا الوجهين أضحى مكرما

إنى عرفت الدهر حتى خلتنى إياه فاسمع سائلى ثم احكما

إن شئت أن تحيا سعيداً بينهم كن تابعاً ما يشتهون معظما

حتى إذا قالوا الظلام أجنناً والشمس مشرقة، فقل ما أظلما

وهذا شاعر يئس من المجتمع ، ونظر إليه نظرة كلها حسرة، وألم ، وماله لا يفعل وهو الذى يقول ، ونقول معه ؟

ماذا أعاتب يا زمان وأتـقى أهلى أم الأيام أم حسادى ؟

ويقول عن قلبه :

ألف الهموم برغمه وألفنـه فغدا بواد والسرور بوادى

ويقول عن أقاربه :

هم مزقوا عرضى لغير جريرة وقضوا على بأن يطول سهادى

يسمون فى خفضى وأطلب رفعهم شتان بين مرادهم ومرادى

(للحديث بقايا)

على العمارى

مبعوث الأزهر إلى المعهد العلمى بأم درمان

النيـــل والسودان (*)

للأستاذ محمود غنيم

سائلاه أأنت نبعَ الجنان ؟ … أم جنى النحل أم رضاب الغوانى!
أم رحيق طالت عليه الليالى … لم يعتَّق أمثاله فى الزمان ؟
يا نديمىَّ إنما أنا صب … بابنة النيـل لا ببنت الحان
أترعا من منابع النيـل كأسى … واهتفا باسمهن ثم اسقيانى
يا نديمىَّ تلك ساعة صفو … سنحت فاختلستها من زمانى
اسقيانى سلافة عُصرت من … قبل خلق الكروم فى البستان
خمرة لم تطش بلب لبيب … شربها شعبة من الإيمان
عصر الناس كل خمرٍ وخمرى … عصرت كرمها يدُ الرحمن
سائلاه أبين عبريه ماء … أم لجين وعنبر سائلان ؟
شِيب آذيّه فكان عقيقاً … وصفا فهو ذوب حب الجمان
وأطافت به الرياح رخاء … فهو حلم فى خاطر الوسنان
وأطافت به الأعاصير هُوجا … فهو طيش الشباب فى عنفوان
وسخا فهو حاتمىّ المطايا … وطغى فهو عارم الطغيان
واستوى فهو كالقدود اعتدالا … وتثنى تثنى الخيزران
وتلوى فى سيره أفعوانا … لا يمج السموم كالأفعوان
مثل صدر الحليم فى الرحب أوفى … ضيق صدر المدال الغضبان
يرد الناس حوضه أبد الدهـ … ـر ولا يشتكى من النقصان
هو طِب الجسوم من كل داء … هو طهر لها من الأدران
كاد أن يغسل القلوب من الحقـ … ـد ويمحو كوامن الأضغان
شق مجراه وابتنى شاطئيه … بيديه مهندس الأكوان
أنا أهواه ما سقى يانع الرو … ض وما بل غلة الظمآن
أنا أهواه ما حييت فإن مت … فحوكوا من عشبه أكفانى

* * *

أيها النيل كم لبثت ؟ ومن أيـ … ـن تفجرت ؟ ما درى الثقلان
سابق أنت للمجرة أم أحـ … ـدث عهداً أم أنتما توءمان
يا سجل التاريخ حدث بما عا … ينت ليس السماع مثل العيان
كيف حاد المؤرخون عن القصـ … ـد وجاءوا بالإفك والبهتان
قد شهدت الإنسان يأوى كهوفا … ويؤاخى فصائل الحيوان
وشهدت الإنسان ينتطح السحـ … ـب ويؤوى رفاته الهرمان
حدث الناس عن فراعين مصر … كيف بذوا الشعوب فى البنيان
كيف دانت لدولة الفرس مصرٌ … كيف دانت لماهل اليونان ؟
هات يا نيل ليلة من ليالى … «كيلُبطرا» وقيصر الرومان
حدث الناس عن بسالة عمرو … وجنود الفاروق فى الميدان
أنت يا نيل معرض للحضارا … ت وشتى الشعوب والأديان
أفأبصرت كالحنيفة دينا … أو رسولا يحكى فتى عدنان ؟

* * *

يا رفيق البنان كيف حفرت الصـ … ـخر بالظفر يا رفيق البنان ؟
كيف دانت لك الهضاب العواتى … كيف لانت صلابة الصوان ؟
كيف جبت الفلا بغير دليل … وملأت الصحراء بالعمران ؟
حولت كيمياؤك الترب تبراً … ونفخت الحياة فى الصفوان
ليت شعرى أساحر بعصاه … أنت أم أنت عالم روحانى ؟
كم نسجت الثياب من غير نول … ثم وشيتها بألف دهان
رب حقل كسوته بعد عرى … فإذا الحقل أخضر الطيلسان
ما بكت أو غنت سواقيك لكن … لك رتلن آية الشكران
أنت يا نيل فاتح فتح المد … ن بغير الحديد والنيران
سائر لا تحيد فوق صراط … كقطار يمشى على قضبان
دائر بين لجة وبخار … كنجوم السماء فى الدوران
لك فى الأرض والهواء مدار … حار فيــه مقوّم البلدان
قربوا الشاه للسماء وزفت … كلُّ خود إليك فى مهرجان
ليت شعرى أحسنوا لك صنعاً … أم أساءوا بذلك القربان ؟
أقلوب الأرباب مثل قلوب النـ … ـاس تهوى فواتر الأجفان ؟

* * *

فيك حييّت كل ذات شراع … تتهادى تهادى النشوان
وبنات البخار إذ هي تعدو … عدْو خيل الطراد يوم الرهان
الجوارى روائح وغوادٍ … فيك يرقصن كالجوارى الحسان
أرسل الفلك فى الفضاء صفيراً … رن فى مسمعى رنين الأذان
وشى يخر العباب ويلقى المو … ج سكانه على الشطآن
فإذا الموج فوقها يترامى … كترامى الولدان فى الأحضان
رقصت موجة وغنت سواها … بخرير منظم الألحان
قلت — والموج راقص ومغن — … ليت شعرى أذاك حفل قران
وتهادى النسيم ألين مسا … من رفيف الندى على غصن بان
وتوالت على العيون المرائى … مرهفات للحس والوجدان

(*) ألقى الشاعر هذه القصيدة فى حفلة التكريم التى أقامها له نادى الخريجين بأم درمان .

صور تبعث التأمل والشعـ ـر وتوحي بروائعات المعانى
وشخوص تلوح إثر شخوص كرسوم فى لوحة الفنان
وكأن الهضاب تومى إلينا بتحايا الإخوان للإخوان
وتكاد الأشواق تدفع بالفلـ ـك وتحتل موضع الربان
أيها الفلك إن بلغت بنا السو دان فاهدأ فقد بلغنا الأمانى
بلد قاته وقانى النيـ ـل ورواه مثلما روانى
جمعتنى به شريعة طه وهداه مناهجها وهدانى
بلد رددت لياليه شعرى وشجاها من لحنه ما شجانى
نحن خلان، رب روح وروح فى سماء القريض يلتقيان
رشفة من منابع النيل تربى حسناتى فى كفة الميزان
ووقوفى بهن يمحو الخطايا ويجب الذنوب بالغفران
أترانى فى موسم الحج يمـ ـمت حماكم أطوف بالأركان؟
أم ترانى حسبت زمزم يجرى ماؤها حيث يلتقى الرافدان
كل مغنى من بين تلك المغانى حرم قد أجله الحرمان
جيرة النيل أرضكم فوق ظهر الأ رض نفح من جنة الرضوان

***

سحب دمعها يسيل سجاما يا لدمع يجرى بلا أحزان
وشعاع تزجيه شمس ضحوك ذات دل ومبسم فتان
وكنوز لم يكشف الستر عنها وأراض عذراء غير عوان
أيها النيل إن شطك رمز الخـ ـلد فى ذلك الوجود الفانى
أيها النيل حول شطك شعب يتحلى بسمرة الأبدان
ذو خصال مثل القواضب بيض ووجوه فى سمرة المران
سمرة اللون فى محياه تزرى باخضرار الرياض فى «نيسان»
ولو أن القلوب صارت وجوها كنتمو كالبدور فى الألوان
علم السحب جودكم كيف تهمى وأمد النيلين بالفيضان
من أياديك يازمان — وما أنـ ـدرها — رحلتى إلى السودان
أنا فيه فى منزلى وعشيرى آنس بالمكان والقطان
شر ما تبتلى به نفس حر غربة الحر وهو فى الأوطان
إن مصرا وإن سودان مصر فى رضاع وفى دم أخوان
وهما منذ كون الله هذا الـ ـكون شعب ولا أقول: اثنان
أمة أمها الطبيعة والنيـ ـل أبوها الأب الأبر الحانى
ربط الله بيننا برباطـ ـين وثيقين الضاد والقرآن
لن يحل الإنسان ما عقدته قدرة الله خالق الإنسان

محمود غنيم

الجمال النائم

للأديب محمد محمد على السودانى

مرقد حفته آمال ظماء رفت الفتنة فيه والصفاء
وتغنى فى دمائى نشوة حلوة الهمس وأحلاماً وضاء
شاد فى أعماق نفسى معبداً أفرغت أسرارها فيه السماء
فاض منه الطهر واستذرت به مهج حيرى بها جاش الرجاء
سجد الدهر على أعتابه خاشع السجدة مهموس الدعاء
رعشة الهيمان فى محرابه تفعم الدنيا نزوعاً وبكاء
كونه الصوفى روض حالم ساحر النضرة نشوان الجواء
خالد البهجة تجرى الرؤى فى الربيع الطلق أو برد الشتاء
كله حسن وشوق ضارع وأمان ظمئات ودعاء
وظلال رقصت أحلامها تحت سوق الدوح رمز الكبرياء
وفراشات طراب نهلت من رحيق الزهر صرفاً ماتشاء
قبست من لونه ألوانها ونضت فى حانه ثوب الرياء
فهى شرب ممعن فى غيه وهى زهر طائر ملء الفضاء
خضرة المرج غناء عطر فى فم البلبل مشبوب الغناء
وهدير الماء شكوى عاشق وحفيف الروح أنغام الوفاء
عالم كالوهم إلا أنه عالم الحسن بأفق الشعراء
ترتمى فيه الأمانى زورقاً مشرق الطلعة جذاب الرواء
زفه اللحن إلى شط الهوى فتهادى فى عباب من ضياء
مرت الأحقاب فى موكبه تنهب المجداف نهباً فى خفاء
قرت الظلماء فى آفاقه وتغشتها سيول من ذكاء
لست تدرى أصباح فارق فى شفوف الغيم أم ذاك المساء
أيها النائم رفقاً أننا لهفة حيرى وأنضاء شقاء
مالنا فى الحسن إلا وحيه وبحانيه لقوم سعداء
أصرف الاغراء عنى مشفقاً واحجب الفتنة عنى بالرداء

محمد محمد على السودانى

رحلات في ديار الشام في القرن الثامن عشر الهجري :

٢ – اردان حلة الاحسان
في الرحلة إلى جبل لبنان (*)
لمصطفى البكري الصديق
(١٠٩٩ هـ – ١١٦٢ هـ – ١٦٨٧ م – ١٧٤٨ م)

للأستاذ أحمد سامح الخالدي

كان صديقنا والد الأولاد المرحوم الشيخ مراد توفي في شهر ربيع الأول فعملنا عند قبره ختما ، وطلب ليلة السير الولد الكبير الاندراج في السلك مع اخوته فأجبته ، فأخذ صالح الدأب على الخير ، وتبعه أخوه خير وأخوتهما ومصطفى وعلى وخالد وعمر وأولاد صالح ، وسرنا بعد أن ودعنا الاخوان وصلينا الجمعة في (سحموانه) وجاءنا من صفد ، من له الغرام بالتحريك أوثق صفد ، وبتنا في (قلعة ممليا) الرفيعة ، وفي الصباح عاد أهل صفد وصحبهم الأخ الشيخ عمر البقاعي وأرسلت معه كتاباً للصهر . ومنها توجهنا بمن معنا إلى الساحل ، وقبلنا لدى ذي النون المصري المقيم الراحل ، فقلت :

وصرنا بلصق جدران (عكة) ... بلدة في الثغور نورت عكة
وحديث بمدحها فضعيف ... بكها الجسم لا تقسه ببكة
وقطعنا نهر الدعائم سرعاً ... وأصبنا لدى المقطع ركة
ونزلنا قريب قلعة حيفا ... وصككنا الجفا على العنق صكة
وسألنا الإله تقريب قدس ... وارتحالا لطيبة ثم مسكة

وبتنا في قرية (صدفند) بعد مشقة ، ومنها أتينا حمى (عتيل) وعزمنا في الصباح على الرحيل ، ونلنا من أهلها إكراماً له حال ثقيل ، وحثثنا المطى بلا وقوف ، إلى (الطيبة) الطيبة الخلوف ، وهذه القرية من قرايا بني صعب [1] التي يأمن بها الخائف ويهون الصعب ، وهم بطن من كندة ومن بجيلة ، وكندة بالكسر ، قبيلة من اليمن ، وقيل الكندي لقب ثور بن عفير أبي حي باليمن لأنه كند [1] اباه النعمة ولحق بأخواله . قاله في القاموس . وفي المصباح المنير بجيلة قبيلة من اليمن والنسبة إليها بجلي بفتحتين ، مثل حنفي في النسبة إلى بني حنيفة ، وبجلة مثل تمرة قبيلة ، والنسبة إليها على لفظها انتهى . ومنها حول نبأ الدليل السلفيتي ، إلى قرية (كور) فقدر بها مبيتي ، لدى الأخ الحاج حسن بن مقلد [2] وسرنا إلى الخربة الطيبة الماء والتربة ، وفيها ورد علينا الأخ الشيخ نور الدين [الهواري] ضحوة النهار ، وفي صباح يوم الخميس ، أول ذي الحجة الأنيس ، سرينا حتى أتينا (صنّير) ، عازمين أنا بعد الغدا نسير ، والقصد التوجه إلى جنة (الذاوية) ، لدعوة رضوانها المنتمى لهلال مرابعها الداوية ، فبتنا لديه ، وأدخلنا صهره السيد محمد الطياري على ابنته الصغيرة . وبايع بعد العشاء جماعة تفوق على العشرين ، وتقدمنا إلى (ديرغسّان) ، وبتنا فيها بليلة حسان ، ودعانا الشيخ إبراهيم الرابي للغدا ، فتوجهنا لزيارة (الخواص) سيد إبراهيم وافر الندى ، فقلت :

أيها الواردون للخواص ... إن هذا المقام نزل الخواص

وتوجهنا سبحاً إلى قرية (عابود) لدعوة أهلها ففتحنا باب الوفود ، ورقينا تلك المنازل ذات الصعود ، وبتنا فيها وحبل السرور ممدود ، ومنها سرينا نجد في السير إلى (بيتلو) للاصطباح ولم نبت إلا لدى (نبي الله شمويل) ولما أرسينا بشطه وأمسينا فيه ، وفد علينا من القادسة من نصطفيه ، فكانت الورّاد من المنزل القدس تنوف على العشرين . وفي ضحوة نهار الثلاثاء سادس الحجة عمدنا الديار المقدسة صحبة الأحباب ، وتلقانا أناس أطهار أخيار ، وإخوان صفا أولى ادكار وأذكار ، ودخلنا مصاحبين الفاقة والذلة والإنكسار ، رجاء الانجبار نتلو البردة الشريفة على عادة أهل الديار ، إلى أن وصلنا قبة السلسلة المرفوعة الأطوار ، وزرنا بعد ختم الذكر المغارة والصخرة الشهيرة الأنوار ، واجتمعت بالأهل والبنية صانها الستار ، وحصل بالاجتماع كمال السرور للحضار » .

وقد استغرقت هذه الرحلة من دمشق إلى القدس عن طريق

(*) مخطوط في خزانة الكتب الخالدية .

(١) هي قضاء طولكوم الآن وأصلها طوركوم .

(١) كذا النعمة كفرها .

(٢) هو حسن بن مقلد الجيوسي ، شيخ بني صعب . وآل الجيوسي يسكنون قدية كور حتى اليوم .

البقاع ولبنان تسعة عشر يوماً . وأخذ الشيخ بعد ذلك يدور في فلسطين ، ويزور مشاهدها ويدون لنا في رحلته ما شاهده من الآثار ، ومن اجتمع به من السادة الأخيار .

* * *

ويقول الشيخ : « ودخل العيد ونحن في صفاء ما به أكدار ، ووردت علينا بعد أيام مكاتيب من أحباب أخيار فخام ، وأرسلنا الجواب البار ، إذ شاقنا التذكار لأهل حلب والشام ، وبقية خطاب كرام ، وحصل بعد الحضور فتور قريحة فلا نثر ولا أشعار ، وكان الأخ السلفيتي توجه إلى مربعه ، وبعد أيام من الإقامة وجمع جامعه لكل مرة مداحة ، حصل رمل عين ، أورث نكد عين ، ثم اتبعتها أختها وحصل الشفا . وحين هل هلال محرم الحرام ، سنة (١١٤١هـ) استقمنا على نظام واحد في الخيام ، هاجرين منهج النظام قهراً ولما آن أن يدنو منه التمام ، بشرت بحمل وقيل أنه غلام ، قلت ما جاء هدية من السلام ، فهو لدينا مقبول ولا ملام ، وعسى أن تكون بنية ذات حال سما ، لاسميها باسم والدتي الشريفة عُلما . وفي صفر الخير اتضحت البشارة ، وزال في شهر المولد ابس الستارة ، وكان الأخ السيد محمد (السلفيتي) وعد بالعود ، لأجل أن يرافقنا في الزيارة العليلية (١) فعزمنا على المسير إليها ، ورافقنا الأخ الشيخ رضوان نجل رضوان الزاوي ، والأخ الشيخ نورالدين الهواري ، وغيرهم من الإخوان ما لهم مساوي . وذلك نهار السبت السادس من شهر ربيع الأول شهر المولد » .

الزيارة العليلية :

« وحين واجهنا سيدنا (شمويل) (٢) قرأنا لجنابه فاتحة الكتاب ، وبعد هنيهة في المسير ، أنشد رضوان الزاوي :

شوش الجمال قلبي حين نادى بالرحيل
قلت للجمال خذني قال لي حملك ثقيل

« وما زلنا على نجد نحب الأرض حباً والوقت أدلى أردان بسطه علينا وذوقنا قضباً وحباً وفاكهة ، ونزلنا للاستراحة وقت الضحى ، ولم نعقل الدار غب طي تلك المسافة إلا في (عابود) ونزلنا غب استقبالهم المضافة . وفي يوم الاثنين غلساً سرنا ، والاستراحة في (نزلة) نزلنا ، وانعطفنا على زيارة سيدنا يهودا وهو أحد أولاد سيدي يعقوب . فقلت :

يا خليلي متلف الوجد عودا وانشقاني نداً عهدت وعودا

وبتنا بقريته المأنوسة ، في دعوة الصديق الشيخ إبراهيم الخليلي القاسمي ، وفي الصباح أتينا (يازور) وزرنا مقام سيدنا حيدرة المنسوب لسيدنا علي بن أبي طالب ، ودخلنا (ساقية) . وفي الضحى سرنا إلى (يافا) ، وقد تلقانا أحبة ، لهم صدق خلوص وفي (الجامع الجديد) حللنا به ، إذ الرفاق جمعهم جمع ، ودعانا الأخ السيد صالح محرم للدار ، وبتنا عند أخينا العواد ، نافين الأكدار ، وتوجهنا للحرم العليلي ، وحضره قبلنا الأخ الحاج حسن مقلد ، وجاءنا نفر من أهل يافا ، وصحبتهم الشيخ خاطر المجذوب وختمنا بعد العصر الربعة الشريفة ، وعملنا المحيا ليلة الجمعة وأقمنا فيه يومها » .

العودة عن طريق نابلس :

وبعد العشا ، وبعد الغشا ، توجهنا إلى (بنيامين) وقرأنا الورد السحري لديه ، وأتينا (كور) وأقمنا بها ليلتين ، ثم وردنا نابلس المحمية ، ونزلنا بساحة (الدرويشية) ودعانا المحب ، الحاج حمدان الطويل ، وأخذ ولده الدخيل الشيخ يوسف وصالح للتكميل ، وقام بما يلزم من إكرام جناب صالح باشا بن توقان [طوقان] ، وزرت مع الأخ السلفيتي في جبلها الشرقي سيدي الشيخ غانم القدسي ، وتوجهنا بمن معنا إلى قرية (عينبوس) ، وأخذنيها العهد الشيخ عمر مملوه الطوس ، وحضر الأخ المأنوس السيد محمد وقال ما أثرت في مبايعة أحد من إخواني ، مثل ما أثرت في مبايعة هذا الأخ الجناني ، ولا سمعت ذكراً أحلى من ذكرك حال التلقين الاحساني ، فاني بمجرد قراءتك الآية الكريمة خشعت أركاني ، وهمت أجفاني . فقلت له كان الوقت طيباً مغموراً بحضور أهل النور الصمداني .

---

(١) نسبة إلى سيدنا علي بن عليل : ومقامه شمالي يافا وهو من نسل عمر بن الخطاب . توفي (٤٧٤ هـ) ويقول في الأنس الجليل أنه أخبر أن الأفرنج لما أقبلوا على ضريحه وهم في البحر كشفوا رؤسهم ونكسوها .

« وسرنا إلى قرية (جماعين)[1] وبتنا بها ليلة الأحد ذات السحاب المبين ، وقرأنا الورد السحرى فى الجامع على جمع من الأعيان . ونحونا نحو (مردا) لم نجد عنها مردا ، وبعد ما أظهرنا مضينا إلى قرية (كفر عين) راجين صلح بنى زيد ، عسى المين عليه يمين ، وبتنا بها فى دار على جلبابها السرور دارا ، ونهجنا منها إلى (دير غسان) بوجدنام ، وقلب رهين منهان ، وأقمنا فيها لأجل الإصلاح ، إذ بدا شر بتلك البطاح ، وأخذنا عطوا شهر للراحة ، وسرنا المنازل بنفوس مرتاحة ، ولدى (بيت ريما) أنزلنا قصراً للاكرام ، وفى (تبتلو) نمنا وبها مدت موائد انعام ، ولم نصلّ الظهر إلا فى بيت الحرم ، الكائن عندى فى الدار الممدود من النعم ، ورجع أخونا السيد محمد ومن معه المنازل وأرسلت للصهر المحترم كتاباً جملته عن كتب جواباً . وصدرته بقصيدة .

سيف الهوى ما أفله　　بعد بلى ذاك سله

وأرسل جواب هذا الكتاب مصدراً بنظم مستطاب مطلعه

غضب الهوى ما أسله　　ياويح من رام سله
به الفــؤاد عليل　　ياليتـه ما أعـــله
فصار جسمى نحيلا　　من الضنا كالأخله
وقد سرى فى عروق　　مثـل الدما وأحله
حتى كسانى وجـداً　　قد صار للقلب حله الخ

وجاءنى منه كتاب ثان ينبىء عن الحب الرفيع الشأن ، وذكر فيه موشحاً للسيد يعقوب الكيلانى ، نجل السيد عبد القادر الحموى الدانى ، وهو على طريقة الأندلسيين . وبعد أيام من ورود الكتاب القندى[2] ، وجاءنى الدرويش الحاج يعقوب السندى ، وطلب منى حال عزم على السفر مكاتبات أربعة أحدها لشيخنا الشيخ عبد الغنى (النابلسى) ومطلعه :

يا لقومى من لصب ما غفا　　طرفه فدام نادى القدس
صافياً هم الثنائى فى الصفا　　إذ تملى بالجمال الأنفس الخ

وكنت أجبت الدرويش يعقوب لما طلب المكاتبات الأربعة إنى منذ أتيت هذه الديار ، أتكلف لكتابة مكتوب حروفه مجمجة وإن أردت النظم والنثر العادي ، أراه متعسراً علي ، ولو تعمل له فؤادي . فما زاده الإعتذار إلا إلحاحاً وإلزاماً فى الطلب ، فدفعت له مكاتبة الأستاذ الملاذ [أى الشيخ عبد الغنى النابلسى] فقال إنه يهديك هدية سنية تفوق لديك الملاذ ، ثم كر على طلب البواقي ، فعملت له مكتوباً لشيخنا الساقى الشيخ ياسين الحموى الجيلانى فقلت :

وكذا نهدى تحايا قد سمت　　وزكت أين ذكا منها أخى
وثنايا سحبها فيضاً همت　　بسطها للقبض يزوى أى زى الخ

وأرسلت للصهر الأمجد كتاباً مصدراً بموشح :

اصبحى اربحى ارجحى　　لوذعى المى اجمى
افوجى اروحى أنجحى　　إرنمى اشجى ارتقى
أنصحى إنطحى إسمحى　　إبدعى إطوعى أجرعى
نفرة بت البخارى وأنا　　مسلم كأس الموطأ محتسى
ولكم إذهب عنا من عنا　　وعياء وعلى ذا فقس الخ

وكتبت كتابا للأخ الحميم الشيخ عبد الكريم المشهور بنسبه الكريم ، بالشرابانى النديم وصدرته بموشح :

أيهـا السيار سرْ بى للحمى
واسقنى من صرف صافى الاكؤس
وإذا ثنيت ثلث فالظما　　قد غانى للمقر الأنفس الخ

ولما أتممت المكاتبات المطلوبة ، وأحضرتهم على كيفية مرغوبة ، تأخر الدرويش يعقوب عن السير ، منتظراً للاذن المحبوب للقلوب عند الطروب . وكان قدم علينا غب العودة من الزيارة رجل مصرى يدعى موسى انتمى إلينا فيها ، وقصده التجارة لكنه مغلوب نفس ، منهوب حدس ، محجوب عبارة ، ملسوب حية أمارة ؟

« وفى يوم الأربعاء من أواخر شهر ذى الحجة توفى الأخ الأمجد الأوحد السيد محمد السلفيتى وسيأتى تاريخ وفاته وبعض ترجمته فى حال زيارة ترتبه ومرثيـــة قلتها فيه ، ما زالت الرحمات توافيه » .

« يتبع »　　　أحمد سامح الخالدى

(١) هى (جماعيل) من أقضية جبل نابلس ، وأحد مراكز العلم فى القرون الوسطى .

(٢) القند عسل قصب السكر إذا جمد .

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

الدروس الخصوصية :

يهتم معالى عبد الرازق السنهورى باشا وزير المعارف بمشكلة الدروس الخصوصية ، ويعمل مع رجال الوزارة على إيجاد حل حاسم لها . وداء الدروس الخصوصية قد تغلغل فى السنوات الأخيرة حتى تسرب إلى رياض الأطفال هابطا وبلغ الجامعة صاعداً . . وقد أحس معالى الوزير بخطره منذ العام الماضى فأصدر قراراً بأن يكون الحد الأقصى لكل مدرس فى الدروس الخصوصية تسع حصص فى الأسبوع ، ويكون ذلك عن طريق ناظر المدرسة ولكن أحداً لم يتقيد بهذا الحد وظلت الحال على ما هى عليه ، وقال النظار إنه لم تقدم لهم طلبات فى شأن الدروس الخصوصية ، وبدت المشكلة بهذا الوجه تحاول أن تستعصى على العلاج .

والواقع أن الدروس الخصوصية تجنى على الطلاب وأوليائهم كما تجنى على المدرسين أنفسهم ، وإذا نظرنا إلى الأفكار الحديثة فى التربية التى تؤيدها المشاهدة والتجارب ، والتى ترمى إلى تكوين شخصية الناشئين عن طريق استقلالهم فى مواجهة التبعات والصعاب مع الملاحظة والتوجيه عند الاقتضاء — إذا نظرنا إلى ذلك نجد أن هذه الدروس الخصوصية إنما هى رجعية منكرة فى التعليم . وهى بعد تغرى الطالب بالتكاسل والتشاغل عن الدروس فى المدرسة ، اعتماداً على أن « بابا » سيتفق مع المدرس فى آخر السنة على كذا من الحصص بكذا من الجنيهات ، ويتم النجاح بفضل هذه الجنيهات !

ثم هؤلاء الأطفال الذين نحملهم إلى الرياض ليلعبوا ويمرحوا ويحيوا حياة اجتماعية تناسبهم ، ولتنتهز المربيات الفرص لتنمية ملكاتهم وأذواقهم وتنشيط أذهانهم وإمدادها بقليل من المبادئ ماذنبهم حتى نزعجهم بطلعة المدرس فى المنزل ونستبدله لهم بما يحبون من الدمى واللعب ! ونغرس فى نفوسهم منذ الصغر كراهية التعليم ؟

وأنا لا أستطيع أن أتصور إثما فى التعليم أشنع من إعطاء الدروس الخصوصية لطلاب الجامعة ، لأنه إخلال بوظيفتها الأولى والأخيرة وهى التعويد على البحث وتكوين الفكر المستقل ، على أن من شر الدروس الخصوصية فى التعليم العام أنها تدليل علمى للطالب يفسده على الدراسة الجامعية ، فما بالك إذا دلل الكبار فى الجامعة ؟ . .

أما آباء التلاميذ وأولياؤهم — من أبناء هذا الشعب المكدود — فهم مساكين . . يشكون أن يلقوا فى المدارس ما يلقى الناس فى المستشفيات من أطباء يتراخون فى المستشفى وينشطون فى العيادة !

وأما المعلمون فهم أشد مسكنة من الجميع ، لأنهم يجدون أنفسهم مضطرين إليها مع ما تصيبهم به من الإرهاق وما تسببه لهم من قعود عن الاطلاع وتزويد أفكارهم وأذهانهم بما يفيد ويمتع من ألوان الآداب والعلوم والفنون .

إن المعلم على رغم ما ناله فى السنوات الأخيرة من تحسن طفيف ، لا يزال يلقى العنت فى حياته المادية ، فهو قلق فى هذه الحياة التى لا يوصله فيها مرتبه إلى مطالب عيشه الضرورية ، فهو إذ يلجأ إلى الدروس الخصوصية لا ينبغى أن يواجه بالمنع أو العقاب ويسكت على ذلك ، بل يجب أن ييسر له العيش الكريم تيسيراً يحفظ عليه كرامته ويصل به إلى مستوى يستطيع فيه أن يستغنى عن هذه الدروس الخصوصية ، فإذا سعى إليها طامع جشع ردع بما يستحق من العقاب .

ولا يكفى فى حل هذه المشكلة أن يحدد مايباح لكل مدرس من عدد الدروس الخصوصية ، بل يجب أن تحسم بالتحريم القاطع ، إلا فيما عسى أن يكون من ضرورة تلجئ إليها حالة التلميذ . وثمة نقطة لا بد من الالتفات إليها ، وهى أن المعلم لا يعطى دروساً خصوصية لأن عنده فضلا من جهد ونشاط ، فهو مرهق فى المدرسة ولا شك ، وإنما تبعثه إليها الرغبة فى رفع مستوى عيشه ، فلا يصح أن يكون من علاج مشكلة الدروس الخصوصية أن يزاد عمله فى المدرسة وتضاف حصص إلى « جدوله » بل أنا أذهب إلى عكس ذلك فأقول بالتخفيف عنه ليتاح له أن يعالج فى نفسه مشكلة الاطلاع والتزود الفكرى ، وأبيح لنفسى — ولست بعيداً عن المعلمين — أن أقول صراحة إنهم يعيشون فى إجداب فكرى يهدد مستقبل الثقافة فى هذه البلاد ، وهم يدورون فى

المدارس دورات آلية تتكون كل منها فى حجرة الدرسين حيث يبدأ بنقل ما فى الكتب المدرسية إلى دفاتر التحضير ثم يلم التلاميذ شعثها ويضعونها فى كراساتهم التى يحملها المعلم إلى حيث بدأ للتصحيح ... ويتم كل ذلك بطريقة آلية مكررة لا تجديد فيها ، وأكاد أقول : ولا تفكير !

وليس ذلك لأن المعلم عاجز أو تنقصه الكفاية ، فقد درس وحصل وتخرج فى الكلية وفى أعلى معاهد المعلمين ، ولكنه أرهق بالعمل وحرم الفراغ الذى يستغله فى مداومة الاطلاع ، فاضطر أن يحيا فى شبه انقطاع عن زاد العقول ، كما اضطر أن يؤدى عمله على الطريقة الآلية السابقة .

حول صانع البؤس :

تلقيت رسالة من أستاذ جليل ضمنها رأياً فى « الخلق والفن » لا يتفق — من حيث العرف الاجتماعى والاعتبار الرسمى — مع مكانه من المجتمع والرسميات . ولهذا قال فى أول رسالته : « أنا — كما يعلم كثير من الأدباء — يزعجنى أن يطرح اسمى مطرحاً يجعله موضوعاً لحديث عام ؛ وربما جاشت النفس بالخاطر يثيره رأى منحرف ، أو نظر حصيف ، وأعيا أمام شهوة الكتابة ، فأسترها مبالغاً ، حتى أوفق بين العاطفتين المختصمتين . لذلك أضع هذا الخطاب الخاص بين يديك على أنه أمانة لا يحل التصريح باسم صاحبها ، ولا وصفه وصفاً محدداً ، إن أنت عرضت له فى أسبوعياتك ؛ وغضب الله عليك إن خنت هذه الأمانة » .

ولذلك ابتعدت عن الوصف المحدد ، وعن غضب الله ... وأقدر للأستاذ الكبير حريته — المقيدة بمركزه — فى إبداء رأيه ، وأشكره على ما أضفاه على من عبارات التقدير والثناء ، وإنه ليسرنى أن أكون عند مثله كما وصف .

وأعرض بعد ذلك الموضوع الذى عرض له ، قال : « أخذت عليك رأيك فى « صانع البؤس » ، فإن صانع البؤس ليس الديب ، ولكن انحراف مزاج الديب ، الذى ما كان يملك تقويمه ، ولا يستطيعه لو حاوله . وفى الشاعر الحاذق النواسى ، الذى ما كان الديب ولا غير الديب يتعلق بغباره ، والذى يقول فيه النقاد : إن الشعر كان أقل أدواته ، ما يقرر مذهب الديب فى الحياة ؛ ثم فيما قاله هو عن نفسه : « أى شاعر يتبذله ابن الحباب » مايقطع بأن الانحلال الخلقى ليس معوقاً عن الفن الرفيع ؛ بل ربما جازت به ... فقلت : إن الخلق الكريم والفن الرفيع قلما يلتقيان . وعلى الجملة كل ما قلته صحيح ، ولكن الحكم على فن المنحلين بما حكمت فى حاجة إلى استدراك » .

وأقول : أولا إننى لم أحكم على فن عبد الحميد الديب ، وإنما أردت أن أصحح خطأ شائعاً يتملق بحياته فقلت : إنه لم يكن بائساً حقيقياً ، وإنما كان يصنع البؤس ، وتضمن السياق ما يدل على انحلاله . وسواء أكان الديب هو صانع البؤس أم انحرافه ، فهو وانحرافه « متضايفان » ، وقد تعلمنا أن الإسناد إلى أيهما صحيح

أما مسألة الانحلال ، فقد كان لكلامى فيها إشارة إلى لون من الناس يحلو لهم أن يصطنعوا الانحلال دلالة على أنهم أدباء وفنانون ! ألم يكن الديب الشاعر منحلا ؟ وهم منحلون ، فهم إذن فى الأدب والفن عباقرة العصر فى مصر !

وأنا وإن كنت أوافق الأستاذ على أن الانحلال الخلقى لا يعوق الفن إلا أننى أقف عند قوله : « إن الخلق الكريم والفن الرفيع قلما يلتقيان » فلا أسلم بهذه القضية .

إن النابغين من ذوى الانحلال الخلقى يجيدون حقاً فى التعبير عن ميولهم وتصوير تجاربهم ، وهم كثيرون ، ولكنهم لا يغلبون على ذوى الخلق الكريم ، وأنا لا أميل إلى التعبير الخطابى ، وإنما أريد أن أفرق بين الانحراف فى الخلق الشخصى وبين الانحلال فى الصفات الإنسانية الرفيعة ، وقد اجتمع الاثنان للديب ، ومن النوع الثانى فيه الحقد وعدم الوفاء ومقابلة الإحسان بالمساءة ، وهذا النوع لا يقبله الفن الرفيع . وعلى ذلك أقول الآن : إن الديب لم يكن ذا أدب رفيع .

الشخصية السليمة :

ألقى الدكتور إبراهيم ناجى محاضرة نفسية موضوعها « الشخصية السليمة » بنادى رابطة الأدباء يوم الأحد الماضى ، فعرف الشخصية بأنها التجاوب المنسجم بين البيئة وبين العقل والشعور المتماسكين ، وشرح التماسك بأن وحدات العقل واتجاهات الشعور قد تختلف فيما بينها ولكنها كجاذيف السفينة تختلف اتجاهاً وتتحد فى الهدف ، فالعوامل النفسية تتنازع ، ولكنها تتفق على الغاية فتمضى إليها كالتيار الجارى . ويقابل التماسك الصراع وهو أن تتعارض العناصر ويعمل كل منها ضد

الآخر ، فينفك بناء الشخصية . وقال إن في متناول أيدينا أن نجمل من اتجاهات نفوسنا طرقاً قوية متلاصقة متلاحمة متوازية ، وأول عامل في بناء الشخصية هو ما يسمى « قبول النفس » وهو أن يتقبل الإنسان نفسه كما هي ، لا يجزع من عيوبه ولا يعدها مهانات بل قيوداً عليه أن يحطمها ، ولا يعدها عوائق بل حوافز تدفع إلى الأمام ، فيواجه نقائصه ولا يهرب منها ، كما فعل سقراط إذ ألف أرستفانيس مسرحية تندر به فيها ، وكان سقراط حاضراً يوم تمثيلها فلما عرضت شخصيته وقف لكي يراه الجماهير .

فليس الشعور بالنقص عيباً فهو أمر طبيعي ، وإن أول سبب لاعتلال الشخصية هو اعتبار الصفات الغريزة عاهات يجب تغطيتها بمختلف الوسائل ، فالواجب تحويل النقص إلى كمال ، فصاحب الحياء أو محب العزلة يمكنه أن ينتفع بعزلته في البحث والتأليف ، وصاحب الفضول والتطلع ينتفع بطبعه هذا بأن يكون شرطياً سرياً أو صحفياً .

ثم تساءل الدكتور ناجي : هل البيئة الواحدة تخلق شخصيات واحدة ؟ فأجاب بأن البيئة تضع من يعيشون في دائرتها في قالبها العام ولكنها لا تجبر كل واحد على نفس ذلك القالب ، على أن لكل فرد أسلوبه الخاص في الحياة . وتحدث عن علاقة الغدد بالشخصية فقال إن الغدد تؤثر في الأمزجة والطباع حقيقة ، ولكن الشخصية قد تتكون رغم ذلك ، ولا لزوم للحكم على شخصية الإنسان من شكله الذي أدى إليه تركيب غددي خاص . ثم قال : إن مميزات الشخصية السليمة أن يكون لها ظل خارجي ممتد ، وعند ما يصير الهدف إنسانياً أو اجتماعياً يكون فجر الشخصية قد انبثق ، فإذا صار الهدف روحانياً فقد بلغنا مستوى أعلى هو مستوى الإيمان ، وهو تلك القوة الخارجية التي تشع في داخلنا الجلد والصبر والعزيمة .

الشخصية المعتلة :

وأعقب الأستاذ وديع فلسطين الدكتور ناجي ، فألقى محاضرة عن « الشخصية المعتلة » قال : اعتلال الشخصية أنواع نقصر حديث اليوم على نوع منها يسمى « السيكوباتية » وهي السلوك المرضي ، والسيكوباتي عدو للمجتمع ولا يسلم هو من عداوته لنفسه ، ولا يصدر سلوكه المرضي عن وعي أو إرادة ، وإنما ينساق في تصرفاته انسياقاً أعمى مشبعاً بطفولة في الاتجاه الفكري واستغراق في لذات عارضة هدامة ، وسير في الحياة بلا هدف أو وراء هدف صوري لا وجود له . فقد يشعل النار في نفسه لا رغبة في الانتحار بل حباً في رؤية النار تحصد جسمه ، وقد يسرق ، لا رغبة في المسروق ، بل لمجرد الإيذاء والعدوان . وهو لا يقدر على التكيف والانتظام في عمل . ولا ينفع فيه التقريع والعقاب ، لأن فطرته عودته على الاضطراب والخلل .

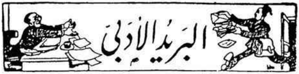
ثم قال إن المريض بالسيكوباتية لا ينبغي أن يسلك مع المجرمين ، لأن المجرم المحترف يدبر لنفسه ويقدر جميع الاحتمالات لينجو ويفلت من العقاب فله إرادة ومنطق وغاية ؛ أما السيكوباتي فهو يقترف جريمته دون قصد أو تعمد ، وكثيراً ما يكون أول من يصاب بجرمه ويلحقه أذى تصرفه المنحرف . ومن المؤسف أن هؤلاء المرضى يعاملون في مصر إما معاملة المجرمين فيزج بهم في السجون ، أو يحسبون مجانين فيحالون إلى مصحات عقلية لا تجديهم نفعاً . وجدير بنا ، وقد استطاع الأطباء العقليون أن يشخصوا داء السيكوباتية ويعينوا أعراضه ومظاهره ، أن نفكر تفكيراً جدياً في تهيئة الوسائل التي من شأنها مساعدة هؤلاء المرضى على أن يألفوا الحياة الاجتماعية شيئاً فشيئاً ، وعلى أن يصبحوا أداة نافعة في المجتمع ، أو يجنب المجتمع آثارهم السيئة .

رسم « أبو رجل مسلوخة » :

قرأت الكلمة التي أراد فيها أحد معلمي الرسم الأستاذ كامل بطرس عصفور ، أن يعلمني الأصول التي كان يجب أن أقف عليها قبل نقد السؤال الذي طلب فيه من تلميذات المدرسة السنية أن يرسمن شجرة الزقوم ورؤوس الشياطين ؛ وأهم هذه الأصول أن تخاطب الصورة المطلوب رسمها قلب الطفل وتملأ نفسه . وها أنذا قد وقفت على هذه الأصول ... بفضل معلمي الفاضل ... ولكني لا أرى فيها شيئاً ينقض ما قلت ، فأين شجرة الزقوم وأين رؤوس الشياطين من قلب الطفل ونفسه ؟ ! وما هي تجربته إزاء هذه الأشياء حتى يعبر عنها ..؟ فليطلب الأستاذ من تلاميذه رسم « البمبم » أو « أبو رجل مسلوخة » أو ما ماثل ذلك مما ينطبق على أصوله ... أما الجحيم وشجرة الزقوم ورؤوس الشياطين فلا .

وهو يقول إنه لا يوافقني على قصر التخيل على العباقرة وأنا ما قصرته عليهم إطلاقاً ، إنما قصرت تخيل الجحيم وما فيه على أولئك العباقرة . أما ما دون ذلك فللأستاذ أن يجول فيه بتلاميذه أو تلميذاته كما يشاء .

عباس خضر



رأى الدكتور يعقوب صروف في أسلوب الآنسة مي:

بمناسبة ما نشر الكاتب الفاضل طاهر الطناحي في نسخة شهر أكتوبر سنة ١٩٤٨ من مجلة الهلال عن الآنسة مي وأثر الدكتور يعقوب صروف في حياتها، وقوله في رسالة إليها، «إنها تفكر بلغة أوروبية قبل ما تعبر عن رأيها بالعربية» أرى خدمة للحق والتاريخ أن أنشر على صفحات الرسالة الغراء كتاباً من الدكتور صروف كتبه إلى منذ أربع وعشرين سنة أبان فيه عن رأيه في أسلوب الآنسة مي في إنشائها، وكشف عن أشياء لم تنشر بعد عنها.

وقد كان هذا الكتاب جواباً عن خطاب مني سألته فيه عن سبب تقديم نشر مقالاتها في المقتطف على مقالات بعض كبار الكتاب وتحدثت عن أسلوبها وما في بعض معانيه من غموض وأجود الكلام كما يقول أهل الفن «ما يكون جزلاً سهلا لا ينغلق معناه ولا ينبهم مغزاه».

وقد كنت يومئذ أتولى تحرير جريدة التوفيق وأشارك في تحرير جريدة المنصورة وأراسل جريدتي السياسة والمقطم.

وهذا كتاب الدكتور صروف من خطه لم أغير منه حرفاً ولم أخرم منه كلمة:

مصر في ٨ نوفمبر سنة ١٩٢٤.

حضرة الرصيف الكريم

سلاماً واحتراماً، وبعد فقد تلوت ما تكرمتم به وفيه أمران، الأول ترتيب المقالات فهذا يراعى فيه زمن ورودها أو وصول يدى إليها إذا كانت عندي، فليس في تقديمها وتأخيرها نظر إلى فاضل ومفضول. والثاني ما تكتبه الآنسة «مي» وأنا أعرف كثيرين من الذين لهم الكعب الأعلى في الإنشاء مثل المرحوم إسماعيل باشا صبري، ومثل السيد مصطفى الرافعي، يجلون قدرها ويمدحونها بالكلام والكتابة؛ وقد رأيت إسماعيل باشا صبري يقبل يدها في بيتي، ورأيت له ولولي الدين يكن والخليل مطران قصائد في مدحها. وأظنني رأيت للرافعي أيضاً كتاباً لها يطنب فيه في مدحها، فهل نسفه كل هؤلاء وهم من أئمة الأدب العربي أو نتهمهم بأنهم يقولون في الحضرة شيئاً وفي الغيبة ضده؟ ثم إنني لا أستحسن هذا النوع من الإنشاء بدليل أنني لا أجرى عليه، ولكنني أفهمه لأنني أحسن لغة أوروبية.

وأرجح أن أكثر الذين يحسنون الفرنسوية أو الإنكليزية يستحسنونه. وقد جرى عليه الآن أكثر أدبائنا في أمريكا الشمالية والجنوبية وبعض أدباء الشام. وسيمكث الأصلح في ضروب الإنشاء.

هذا وأشكر فضلكم على حسن ظنكم بالمقتطف خاتماً بأطيب تحية.

يعقوب صروف

هذا هو كتاب الدكتور يعقوب صروف وهو ولا ريب وثيقة تاريخية مهمة تنفع كل من يعنى بتاريخ الآنسة مي ويحرص على درس تاريخها.

(المنصورة) محمد أبو ريه

الأزهر ومعهد القراءات:

دأب القراء المحدثون على أن يرتلوا كتاب الله بالأوجه التي تواترت في كتب القراءات كالشاطبية والطيبة. يتلقونها تلقيناً ويأخذونها مشافهة.

وأكثر القراء الآن مع الأسف لا يفهمون السر في أوجه التغيير التي قد تطرأ على الروايات ولا يدركون اختلاف الأعاريب وعللها. ذلك لأن مقصدهم عند تلقيهم إنما هو الإسماع والتطريب لا الدراسة والتحليل.

ومع أن القرآن الكريم — بأوجه قراءاته — هو أصل الأصول للدراسات العربية والمصدر الأول للتشريع فإننا لا نجد معهداً علمياً خصص له دراسة مستقلة لقراءاته. ولا أعني بالدراسة المستقلة تلقين المدود ومذاهب القراء في الإمالة مثلا، وإنما الذي أعنيه هو أن تخصص له دراسة في الكليات العربية كدار العلوم واللغة والآداب تتجه إلى أمثال ما يأتي:

١ — دراسة اللهجات العربية دراسة مستفيضة.

٢ — الإلمام بتاريخ القراء ومبلغ تأثرهم باللهجات.

٣ – أثر القراءات فى التفسير .

٤ – أثر القراءات فى النحو والبلاغة .

٥ – أثر القراءات فى التشريع . إلى غير ذلك من الموضوعات التى كان للقراءات فيها أثر كبير . وليس من المعقول أن يلم بأمثال هذه الدراسة أولئك الذين حفظوا القرآن فحسب ، وإنما يستطيع أن يتابعها من ألموا باللغة العربية والشريعة إلماماً واسعاً لا يقل عن شهادة الأزهر الثانوية ، فهم الذين يمكنهم أن يفهموا ما يلقى عليهم من محاضرات علمية جامعة . وأمثال هذه الدراسات ليست من السهولة بمكان ، ولا يكفى أن يقوم بتدريسها من حفظ الشاطبية والطيبة والنشر مثلا ، بل لا بد من أن يلقيها أساتذة لهم من الدراسات العلمية واللغوية ما يؤهلهم لفهمها وإفهامها . وكنت أحسب أن الأزهر الشريف حينما أنشأ معهد القراءات التابع لكلية اللغة العربية أراد هذا اللون من الدراسات غير أننى حينما قرأت وسمعت عن الدارسين بهذا المعهد وجدته لا يشترط فيهم إلا ما يشترط فى معلمى « الكتاب » زيادة أن يجوزوا امتحاناً فى الشاطبية والدرة وأمثالها ، فكأن معهد القراءات « مكتب » منظم لتخريج مقرئين فقط . أما الغاية الكبرى فليست من منهج هذا المعهد . فهل تجعل كليات دار العلوم واللغة والآداب للقراءات فى مناهجها نصيباً ، أو أن الأمر سيظل ضئيل الأهمية لا تجد من العناية ما يليق بكتاب الله وأوجه قراءاته ؟ ولعلى إن شاء الله أقدم أنموذجاً لبعض هذه الدراسات إن وجدت – كما أعتقد – من أستاذنا الزيات ورسالته صدراً رحيباً .

عبد الستار أحمد فراج
محرر بالمجمع اللغوى

يهودى فى المعتقل :

ورد فى مقال صاحب الرسالة (حكم من أحكام الله) تعليقاً على حكم قضاء البصرة العادل : (فتنزلهم) (والهاء يعود الحكومة المصرية والميم على اليهود على الرحب والسعة وتكفل لأموالهم وأهليهم الأمان والدعة) .

وليت الأستاذ الزيات يعرف ما تصيبه طائفة اليهود من مغانم فى المعتقلات المصرية .

وإنى أوفر على نفس نصب التدليل والبرهان وأكتفى بسرد القصة الآتية : فى كلية الصيدلة يطلب شاب يهودى العلم فى السنة النهائية ، وهذا الطالب يعيش عيشة ضنك وحرمان ، وفى أوقات فراغه يزاول عشرات الحرف ليحصل على طعامه . وقد ذكر فى حديث له أن أخاً له كان ينفق عليه وتخلى عن نفقته ؛ ومن منظره وهندامه يتبين أنه مبالغ فى قوله فلا أعتقد بأنه خرج من أم وأب وله أخوة وإنما هو ابن الفقر الأوحد .

وشاء حظه الحسن أن تمادى مصر الصهيونية وسمع بأنها تقبض على كل من تشتم فيه رائحة العداء ، فأطلق لسانه بكلام وما قصد إلا الخير وهو أكل القوت فى المعتقل ، وتم له ما ابتغى وغاب عن الكلية أشهراً ثم عاد إليها مخموراً ليؤدى الامتحان ، وإذا بابن الفقر قد أصبح عاقاً لوالده ، ولعله هجر صحبته من يوم أن دخل المعتقل فخرج فى وجه ولبوس غير اللذين دخل بهما .

وسأله زميل له : من أين لك هذا النعيم وأنت معتقل ؟

فتبسم اليهودى قائلا : ليت مصر حاربت اليهود من يوم أن خرجت للدنيا ! ولو أن الجنة كانت كالمعتقل كما يصفها المسلمون لأسلمت من الآن . وما كنت قبل حديث هذا اليهودى أتصور بأن الحكومة تمالئهم فى المعتقل بكادر وتجرى عليهم راتباً يومياً وتدعهم أحراراً ينفقون أموالهم كما يشاءون ! فطوبى لكل يهودى يعيش تحت سماء مصر !

عبد الرحمن فراج

إلى الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ :

قرأت فى عدد الرسالة ٧٩٧ فى مستهل مقال الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ الفتوة عند الصوفيين هذه العبارة (والفتى هو الشاب حدث السن) وقوله حدث السن تركيب لم يرد فى متون اللغة ، بل نص فى بعض الكتب على منعه ، فقد ورد فى الأمالى للقالى (جـ ١ ص ٢٦) فى مطلب أسماء الرجل يحب محادثة النساء ما يلى :

(الحدث : الشاب ؛ فإذا أضيف إلى السن قالوا : حديث السن ولم يقولوا حدث السن) .

وفقنا الله إلى الاستعمال الصحيح الفصيح .

اسماعيل أبو ضيف
الأزهرى



القلب الواشي

للكاتب الأمريكي ادجار الان بو

حقاً ، لقد كنت عصبياً ، ولا زلت في حالة عصبية مخيفة . ولكن .. لماذا تقول إني مجنون ؟ إن الداء قد أرهف حواسي — لم يدمرها — ولم يضعفها ، ولا سيما حاسة السمع الحادة . لقد سمعت أصوات من في الأرض ومن في السماء ، حتى من في الجحيم . فكيف إذن أكون مجنوناً ؟ أصغ لي ، ثم لاحظ كيف أقص عليك القصة بحذافيرها وأنا في تمام الصحة وفي غاية الهدوء .

إنه لمن المستحيل أن أعبر كيف أثرت تلك الفكرة على عقلي بادئ ذي بدء . ولكنها أصبحت تلازمني ليل نهار . أما عن الدافع فلقد كنت أحب ذلك الكهل . إنه لم يخطئ في حقي البتة ، ولم يوجه إلي أية أهانة ، ولم أكن أرغب في ماله . ولكن عينه هي السبب ، نعم كانت هي السبب . إنها تشبه عين الطائر . عين العقاب . كانت زرقاء تغطيها طبقة شفافة لامعة . وكنت في كل مرة تلتقي عيناي بها ، تثور ثائرتي ، ويهيج هائجي . ولهذا قررت أن أنهي حياة الكهل ، وبذلك أتخلص من تلك العين إلى الأبد . هذا هو الدافع . إنك تتخيلني مجنوناً . ولكن ليتك رأيتني أقوم بالعمل وأنا في كامل وعيي . ليتك شاهدتني وأنا أنجزه في حيطة وحذر . كنت أشفق على الكهل في أيامه الأخيرة أكثر من إشفاقي عليه في أيامه السابقة . وكنت في منتصف كل ليلة أدير أكرة بابه وأفتحه في هدوء ، وياله من هدوء ! ثم أطل برأسي عليه بعد أن أقلل من ضوء المصباح تدريجياً حتى يشع نوره داخل الغرفة . كنت أحرك الباب في بطء حتى لا أزعج نوم الكهل ، فيستغرق ذلك مني وقتاً طويلا . هل يمكن لرجل مجنون أن يكون عاقلا إلى هذا الحد ؟ فإذا ما أطللت برأسي داخل الغرفة ، أزيد من ضوء المصباح باحتراس ، بكل احتراس ، فأسمح لشعاعة ضئيلة تسقط على عين العقاب .

كنت أفعل ذلك سبع ليال متتالية ، ولكني كنت أجد العين دائماً مغمضة ولذلك كان من المستحيل على أن أنجز عملي . لأنه لم يكن الكهل هو الذي يثيرني ، بل كانت عينه الشريرة . وكنت في كل صباح ، عندما تشرق الغزالة ، أذهب إليه في شجاعة وأتحدث معه في جرأة ، وأدعوه باسمه في لهجة ودية وأسأله كيف قضى ليلته . وهكذا ترى أنه لم يشك فيما كان يحدث كل ليلة وهو نائم ما لم يكن بعيد النظر !

وأقبلت الليلة الثامنة ، وكنت أكثر حذراً في فتح الباب . كنت أسيطر على شعور الانتصار في قوة عجيبة وأنا أفكر في ذلك الكهل الذي يجهل ما الذي أفعله وما الذي أفكر فيه . وابتسمت ثم ضحكت . وسمعت حركة في الفراش . لعله سمعني أضحك فقام فزعاً ولعلك اعتقدت أني تراجعت . ولكن .. كلا ، فقد كانت الغرفة حالكة الظلام ولا يستطيع رؤيتي وأنا أفتح الباب . ولذلك ظللت أدفعه في انتظام . وأطللت برأسي . وكنت على وشك إضاءة المصباح عندما انزلقت يدي فأحدثت صوتاً . وهب الكهل من فراشه صائحاً « من هناك ؟ » ظللت ساكناً ولم أفه بكلمة . ومكثت ساعة كاملة دون أن تتحرك عضلة في جسمي . ولم أسمعه يرقد ثانية . كان لا يزال جالساً في فراشه يتسمع مثلما كنت أتسمع ليلة إثر أخرى .

ثم طرق أذني أنين خافت ، أنين من الرعب المميت . لم يكن أنين ألم أو شجن .. كلا ! كان صوتاً خافتاً مخنوقاً يرتفع من أعماق روح امتلأت رعباً ووجلا . وكنت أعرف ذلك الصوت جيداً ، وأدرك ما يشعر به الكهل ولذلك كنت أشفق عليه وأنا أقهقه من أعماق قلبي ! وتصورته راقداً مستيقظاً تزداد مخاوفه كلما تقلب على الفراش ، ويحاول أن يتغلب عليها وهو يوهم نفسه بأن ما حدث مجرد أوهام . وتخيلته يتحدث إلى نفسه قائلا « إنه حفيف الريح داخل المدخنة — إنه فأر صغير يعبر الغرفة » نعم ، كان يحاول أن يسرى عن نفسه بشتى الافتراضات دون طائل . دون جدوى ، لأن الموت كان يقترب منه رويداً رويداً ويطارده بشبحه الأسود ، ويحيط به من كل جانب . وكان تأثير ذلك الشبح عليه هو الذي جعله يدرك وجودي داخل غرفته دون أن يراني أو يسمعني . وانتظرت وقتاً طويلا بصبر عجيب دون أن أسمعه يرقد . ثم عزمت على إضاءة المصباح قليلا . قليلا جداً ، وخرجت شعاعة واحدة .. شعاعة كأنها خيط العنكبوت . خرجت من فتحة المصباح فسقطت على عين العقاب . كانت مفتوحة تماماً ، فعصف بي غضبي من رؤيتها ، وكانت واضحة أمامي بلونها الأزرق وغلالتها الشفافة ، فأصابتني رعدة شديدة تملكت في ذات نفسي حتى وصلت إلى عظامي . ولم أر من وجه الكهل أو جسمه سواها ،

وكأنها وجهت الشماعة بشعور غريزي لا إرادي إلى تلك العين الملعونة بالذات. ألم أخبرك أن ما تعتقده جنوناً ليس إلا إرهاف الحواس؟ ثم وصل إلى سمعي صوت خافت سريع التردد كأنه صوت ساعة مغلفة بالقطن. فعرفت ذلك الصوت. إنه نبضات قلب الكهل، فاستشطت غضباً وامتلأ قلبي غيظاً وحقداً. ومع ذلك ظللت ساكناً وحبست أنفاسي. وأمسكت بالمصباح دون أن أتحرك وقد سلطت الشماعة على عينه. كانت ضربات قلبه تزداد وترتفع صوتها في سرعة غريبة. واستنتجت أن الكهل قد وصل رعبه إلى أقصاه. وارتفع الصوت، وتعالى. ألم أخبرك أنني عصبي؟ نعم، لقد كنت في حالة عصبية شديدة. وولد ذلك الصوت في نفسي، في ذلك الوقت المتأخر من الليل، وبين ذلك السكون المطبق الموحش، ولد فيَّ شعوراً من الرعب لا يقاوم. ومع ذلك ظللت صامتاً ساكناً. وكانت الضربات تتعالى ثم تتعالى حتى خلت أن قلبه على وشك الانفجار. ثم تملكتني ثورة جديدة! ألا يجوز أن يسمع الجيران ذلك الصوت؟ إذن فقد حانت ساعة الكهل!

وصحت صيحة مدوية، وأضأت المصباح ثم قفزت إليه. فصرخ صرخة واحدة! وفي لحظة كنت قد سحبته إلى الأرض وألقيت فوقه الفراش. ثم ابتسمت في رضاء. لقد أنجزت أخيراً مهمتي. وظل القلب ينبض في صوت مختنق لبضع دقائق، وأخيراً صمت. لقد مات الكهل. وأزحت الفراش وفحصت الجثة. نعم كان ميتاً كالحجر. ووضعت يدي على موضع قلبه وتركتها لحظة. لم يكن هناك نبض. لقد مات حقاً، ولن تعود عينه تضايقني بعد الآن. إذا كنت لا تزال تظن أني مجنون، فإن ما قمت به من احتياطات وما فعلته لإخفاء الجثة سوف يبدد هذا الظن. كان الليل على وشك الرحيل فبذلت همة ونشاطاً، وقمت بإنجاز العمل في سكون. قطعت أطراف الجثة، ثم انتزعت ثلاثة ألواح خشبية من أرض الغرفة، وحفرت في موضعها، ثم أخفيت الجثة فيها، وأخيراً وضعت الألواح في مكانها. وعادت الغرفة إلى ما كانت عليه.

كانت الساعة قد أشرفت على الرابعة عندما انتهيت من كل شيء، وكان الظلام لا يزال مخيماً. وعندما دقت الساعة دقاتها سمعت صوت طرق على باب الدار، فنزلت أفتح بقلب مطمئن — فما ذا يخيفني الآن؟ وجاء ثلاثة من رجال الشرطة، وشرحوا لي أن أحداً أبلغهم سماع صرخة صادرة من الدار. وابتسمت، ما الذي يخيفني الآن؟ ورحبت بهم، وقلت إن الصرخة صدرت مني أثناء نومي وأنا أحلم. وأدعيت أن الكهل على سفر. وطلبت منهم أن يفتشوا الدار.. يبحثونها جيداً. وأخيراً أوصلتهم إلى غرفة الكهل. وأطلعتهم على ثروته دون أن يمسها أحد. كنت واثقاً من نفسي كل الثقة، ولذلك أحضرت إليهم مقاعد وأجلستهم في الغرفة حتى يستريحوا من عناء البحث. وجلست أنا المنتصر في وقاحة على أحد المقاعد بعد أن وضعته على المكان الذي ترقد فيه الضحية. وكنت أجيب على أسئلتهم في سرور. وجعلوا يتحدثون ويثرثرون وأنا أستمع إليهم في رضاء.

ولكن لم تمض فترة طويلة حتى شحب وجهي، وآلمني رأسي وسمعت طنيناً في أذني، فتمنيت عندئذ أن يرحلوا، ولكنهم ظلوا جالسين يتجاذبون الحديث، وعلا الطنين وازداد وضوحاً، واستمر يتعالى ويتعالى. وارتفعت عقيرتي بالحديث حتى أتخلص من هذا الشعور المؤلم، ولكن الطنين زاد وضوحاً، فتيقنت أخيراً أنه لم يكن منبعثه أذني. ولم يكن هناك أدنى شك في أني كنت شاحب الوجه. ولذلك طفقت أتكلم في طلاقة وبصوت حاد ومع ذلك ارتفع الطنين. ما الذي أستطيع فعله؟ لقد كان صوتاً مروعاً «كأنه صوت ساعة مغلفة في قطن!» وأسرعت أنفاسي ونظرت إلى رجال الشرطة فظهر لي أنهم لم يسمعوا ذلك الطنين. وجعلت أهذي في حديثي وأثرثر وازداد صوتي حدة. ولكن الطنين كان يرتفع في انتظام. وقمت وتجادلت في شتى المواضيع التفهة بصوت عال وإيماءات متعددة، ولكن ذلك الطنين كان يطغى على صوتي. وسألت نفسي لماذا لا يرحلون؟ وذرعت الأرض جيئة وذهاباً بخطى ثقيلة. ولكن الصوت، ذلك الصوت! أواه.. يا إلهي.. ما الذي أستطيع عمله؟ وغلى مرجل غضبي، وتمتمت وأقسمت وضغطت بالمقعد على الأرض وضربت به على الألواح الخشبية. ولكن ذلك الصوت.. كان لا يزال يرتفع تدريجياً.. واستمر يتعالى في شدة.. في شدة.. في شدة! وما زال الرجال يتحدثون ويمزحون ويتضاحكون. هل من المحتمل أنهم لا يسمعون شيئاً! يا إلهي! كلا.. كلا! لا بد أنهم سمعوه! واشتبهوا! وعرفوا! إنهم يسخرون من رعبي! ذلك ما ظننته وذلك ما أظنه وما أفظعه من عذاب! وما أبشعها من سخرية! إني لا أستطيع احتمال هذه الابتسامات المنافقة بعد ذلك! وشعرت أنه يجب علي أن أصرخ.. ولكن هذا الصوت كان يزداد وضوحاً.. وصرخت فيهم قائلاً «أيها الأشرار انفضوا.. إني أعترف بارتكابي الجرم! انزعوا الألواح هنا! هنا! هذا الصوت هو خفقان قلبه.. قلبه الواشي المختبيء هناك!».

محمد فتحي عبد الوهاب